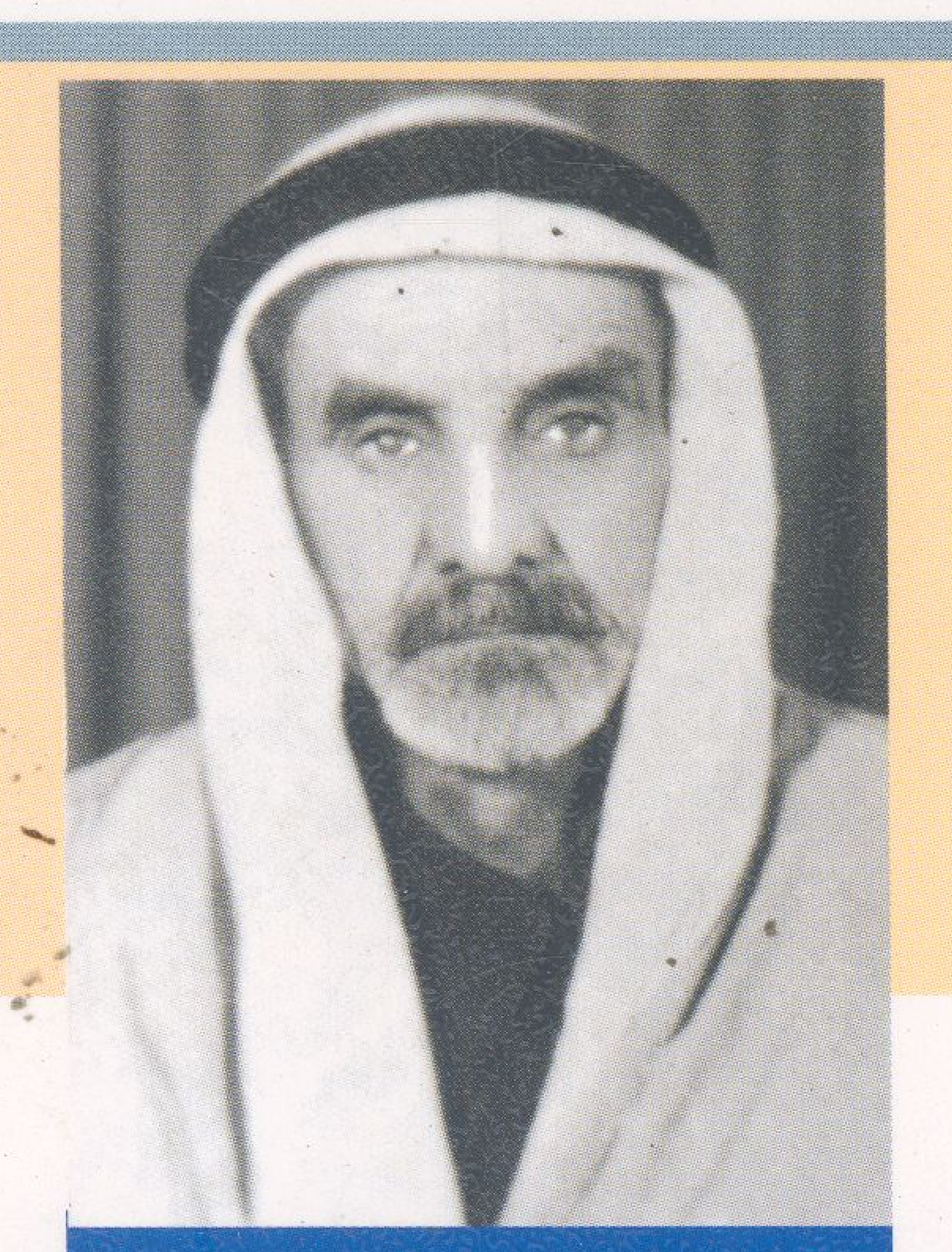




مَنارات ثقافية كويتية



زيد الحرب

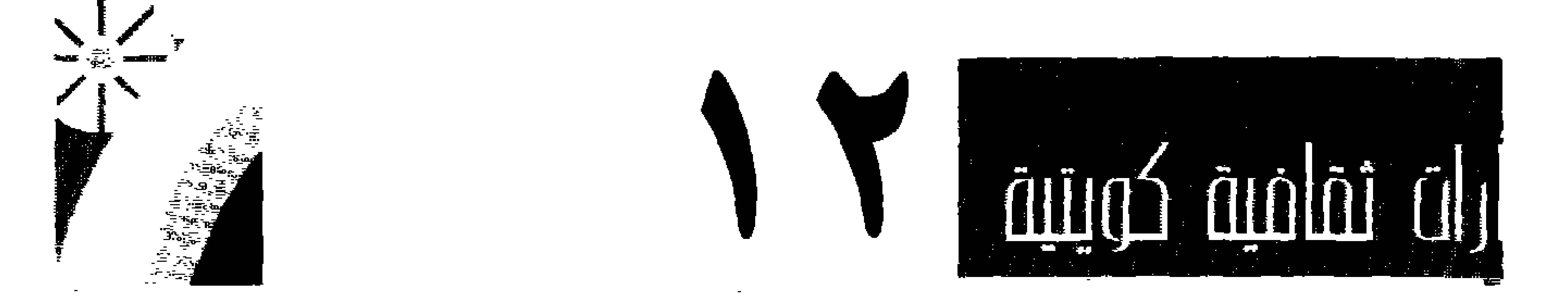
والعزف على أوتار الأمة



د. حصة سيد زيد الرفاعي

د. صباح السويفان

غنيمة زيد الحرب



زيد الحرب
والعزف على أوتار الأمة

ندوة ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٤

الكتاب

الثاني

عشر

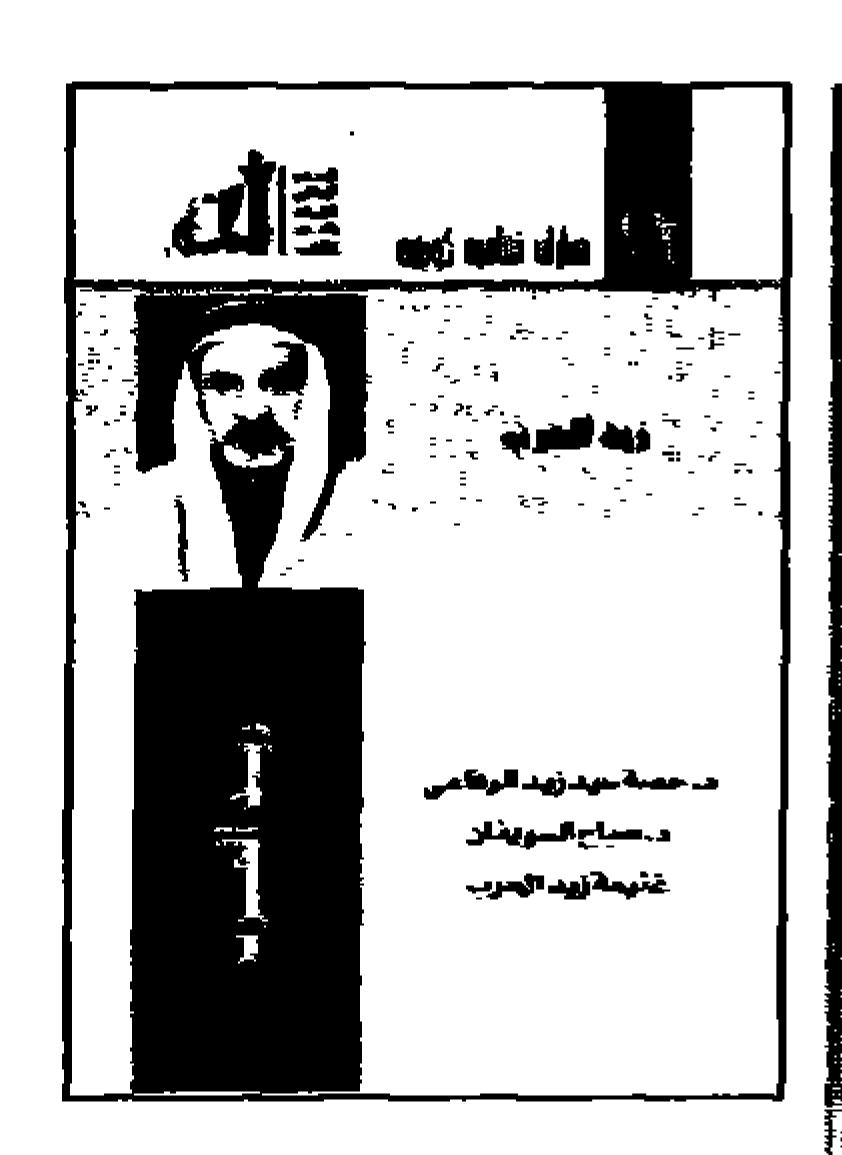
محاضرة: د. حصة سيد زيد الرفاعي

تعقيب: د. صباح السويفان

تحرير: غنيمة زيد الحرب

ادارة البحوث والدراسات

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب





زيد الحرب

والعزف على أوتار الأمة

منارات ثقافية كويتية ١٢

أقيمت ضمن أنشطة مهرجان القرين الثقافي الحادي عشر

في ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٤

محاضرة:

د. حصة سيد زيد الرفاعي

تعقيب: د. صباح السويفان

تحرير: غنيمة زيد الحرب

إشراف: إدارة البحوث والدراسات

الناشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

١٤٢٦ هـ/٢٠٠٥م

دولة الكويت

ردمك ١ - ١٦٣ - ٠ - ٩٩٩٠٦

ISBN 99906 - 0 - 163 - 1

2005

تقــديم

نحو إعادة اكتشاف زيد الحرب

يحاول هذا الإصدار الجديد من سلسلة «منارات ثقافية كويتية» إعادة اكتشاف الشاعر الشعبي زيد عبدالله إبراهيم الحرب (١٨٨٧ - ١٩٧٢)م، وقصائده التي يمكن من خلالها إعادة قراءة مرحلة تاريخية على لسان شاعر عبّر بصدق وإحساس مرهف عن حالة الكويت وأهلها في عصر ما قبل اكتشاف النفط، وامتدادا حتى الربع الأخير من القرن الماضي، أي في حقبة شهدت العديد من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية محليا وعربيا ودوليا.

وعندما ندرس شعر زيد الحرب، فإننا نقع على حالة شعرية نادرة ترعرعت على ظهر سفن الغوص بحثا عن اللؤلؤ، وسفن التجارة، وشارك في معركة الدفاع عن الكويت في موقعة الجهراء، سنة ١٩٢٠، وفي بناء سور الكويت، كما عاصر انعكاسات أزمة كساد الاقتصاد العالمي (١٩٢٩) على الاقتصاد المحلي، وذلك إضافة إلى اهتمامه بقضايا

العرب وآمالهم بالتحرر والوحدة والنهضة، والتي كانت محور العديد من قصائده. إننا أمام شاعر نظم شعر الغزل والرثاء والمناجاة، كما نظم قصائد تغنى فيها بحياة البساطة وبالكفاح الإنساني تارة، وعبّر تارة أخرى عن الإحباط وخيبة الأمل، لا سيما في أوقات المِحن التي تعرض لها.

ولم يكن لزيد الحرب أن يجمع بين ألوان الإبداع الشعري هذه لولا ثقافته الواسعة في التاريخ والتراث على رغم أميته، كما لم يكن له ذلك لولا متابعته للأحداث التي عاصرها، مما يعكس سعة اهتماماته في وقت لم تكن قد انتشرت فيه وسائل الإعلام المعاصرة، فكان أن جسد بحق المفهوم القائل بأن الشاعر لسان حال أمته وثقافتها. ومن هنا، يمكن القول إن إحدى ميزات شاعرنا هي أن قصائده جاءت عامرة بسيرة حياة شاقة ومبادئ سامية، وهو المؤمن بالعدل والمساواة، وحرية الفكر، ورفض الظلم والخنوع وغيرها من المبادئ التي دعا إليها، مستعينا بملكة شعرية «فطرية»، صوّر فيها ظروف شعبه وآماله في ذلك الزمان، وسكبها في قالب فني

جميل، مما جعل قصائده تتردد على ألسن البحارة، وعلى ظهور السفن وفي البيوت والمناسبات، فكان بحق منارة ثقافية شعبية بكل ما للكلمة من معنى.

والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، إذ يخصص هذه الحلقة من سلسلة «منارات ثقافية كويتية» للشاعر زيد الحرب تكريما له ولإبداعه، ليأمل في الوقت ذاته أن يعرّف بهذا الشاعر المميز لدى الأجيال التي لم تتسن لها معرفته، خاصة أنه لم ينل إلى الآن حقه من النشر - باستثناء كتاب بأشعاره جمعتها ابنته الشاعرة غنيمة زيد الحرب، وحمل اسمه وصدر في عام ١٩٧٨. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإننا نأمل - عبر هذا الإصدار - المساهمة في دراسة قصائد وإبداع هذا الشاعر نظرا إلى ما انطوت عليه من دلالات اجتماعية وثقافية وتاريخية تعكس تلك المرحلة المهمة من تاريخ الكويت.

إن هذا الإصدار يشتمل على أوراق الحلقة الثانية عشرة من سلسلة «منارات ثقافية كويتية»، التي أقامها المجلس في ديسمبر ٢٠٠٤، في إطار مهرجان القرين الثقافي

الحادي عشر، وهي تتكون من دراسة وتعقيب تناولا بالعرض والتحليل شعر زيد الحرب، وسيرته مع مختارات من قصائده. وبذلك نأمل أن نكون وفينا هذا الشاعر بعض ما يستحق إبداعه من اهتمام وعناية وتوثيق، كجزء من اهتمامنا برصد مسيرة الثقافة في الكويت، وتسليط الضوء على أعلامها المبرزين.

بدر سيد عبدالوهاب الرفاعي

الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب



زيد الحرب

غنيمة زيد الحرب (*)

حين يُطلب منك أن تكتب مقدمة لكتاب ما فإن المهـمـة تكون سهلة، إذا كنت ملما بالموضوع من جهة، ومحبا له من جهة أخرى، ولكن ماذا لو كان الموضوع هو أنت، هل سيكون الأمر كذلك؟

لا أعتقد.

كلفت من قبل المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بكتابة مقدمة لكتاب «منارة زيد الحرب»، الذي يضم بحث الدكتورة حصة الرفاعي، بالإضافة إلى تعقيب الدكتور صباح السويفان.

وما أن أمسكت بالقلم، حتى تداعت الأفكار، وانهالت الذكريات، فاسترسلت في الكتابة ما كوّن شبه كتاب صغير، وليست مجرد مقدمة كما يجب أن تكون، وقد نبهني المسؤولون في المجلس إلى هذا الأمر، طالبين إعادة كتابة مقدمة جديدة.

وهأنذا أبدأ كتابة مقدمتي، بينما ستلتقي - عزيزي القارئ - بمطولتي (التي كان من المفروض

---

* حاصلة على ليسانس آداب، علم نفس من جامعة الكويت في العام ١٩٧٤.
بدأت منذ السبعينيات بنشر قصائدها ومقالاتها في الصحف اليومية.
أصدرت ٤ مجموعات شعرية هي: قصائد في قفص الاحتلال عام١٩٩١، وثلاث مجموعات اخرى في عام ١٩٩٣ هي: هديل الحلم، اجنحة الرمال، في خيمة الحلك.

أن تكون مقدمة) في نهاية الكتاب، وكأنني قد أبيت إلا أن أكون حارسة لمداخل المنارة ومخارجها.

وحتى لا أسترسل من جديد، سأكتفي بالإشارة إلى جانب من السيرة الذاتية لهذا الرجل، فيما يتعلق بحياته الأسرية، وهو جانب سبق أن أشرت إليه في الندوة التي أقامها المجلس في مقر رابطة الأدباء بتاريخ ٢٧ ديسمبر عام ٢٠٠٤، بعنوان «منارة زيد الحرب».

زيد الحرب الأب:

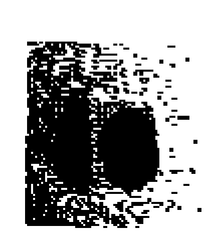
تعلمنا - شقيقتي وأنا - من الشاعر زيد الحرب الشيء الكثير، فقد غرس في رأسينا الصغيرين أفكارا جميلة عن العدل والمساواة، كقيمة مطلقة وكقانون يساوي بين فئات المجتمع وطبقاته، ومن ثم المساواة بين الجنسين في الحقوق والواجبات - بما لا يتعارض مع التكوين الطبيعي لكل منهما - وترجم هذه التعاليم إلى سلوك واقعي تجاهنا، فلم نشعر قط بأننا أقل شأنا من الرجال، فقد كان متفتحا مستنيرا سابقا لعصره، فتح بيننا وبينه أبواب الحوار، وأعطانا من الثقة ما لم يعط لكثيرات في مثل ذلك الوقت، لقننا تعاليم الحرية الفكرية، وأتاح لنا حرية التعبير وحرية الاختيار،

كما وفر لنا فرص التعليم في مرحلة مبكرة، ولم يكتف بما حقق لنا من سعادة وطمأنينة واستقرار، بل واصل العمل من أجل أن يوفر لنا مستقبلا أجمل، حتى اللحظات الأخيرة من عمره المديد.

ولهذا كله، لم يتولد لدينا هاجس المساواة بين الرجل والمرأة - ليس بسبب رفضنا لها - بل لأننا لم نشعر قط بالدونية، لكوننا إناثا، اعتاد المجتمع إدراجهن في ذيل التصنيف، بل على العكس من ذلك، كان يكرر على مسامعنا ما يؤكد قناعته بالمساواة بين الجنسين، وأتذكر فيما أتذكره في هذا الشأن، أنني حين نقلت له بشرى مولد أولى حفيداته، وكان ساعتها طريحا على فراش المرض في المستشفى الأميري، انبسطت أساريره، وعبر عن سعادته بجملة لم يبرح صداها أذني على الرغم من مرور أكثر من ثلاثين عاما، حين قال: يا ابنتي إن ابنة شقيقتك أفضل عندي من ألف ولد.

بيت زيد الحرب

تخيل عزيزي القارئ بيتا صغيرا يضم أبا شاعرا، وأُما نثرت حبوب الحنان على بساط تحبو فوقه طفلتان رضعتا من المحبة والجمال، ما وفر



لهما إشباعا حتى نهاية الرحلة.

يقول الشاعر زيد الحرب متغزلا بأسرته وببيته الجميل:

البـــارحـــة يا بدر شيٍّ جـــرالـي
يوم أنا شـفت من شـوفـة طريفـه
التــفت عن يميني وعن شــمــالي
وردتين من المهـرة العـفـيـفـة
شـوف «دسـمـان» وغـيـره مـا طرالي
عن قـعدة «الكشك» تغنينا الصريفة
لـي حـضــرنا حكمنا مــا نبــالي
حكم «ديلي» في دار الخلـيــفــة

إذن يتباهى زيد الحرب بحياته البسيطة على أصحـاب القـصـور، لما يجـده من تـناغم وسـعـادة، واستقرار في بيته الصغير.

مكانة المرأة في أدبيات زيد الحرب:

يجـرنا الحـديث السابق إلى الإشـارة إلى مكانة المرأة عموما في أدبيات زيد الحرب.

لقـد تغـزل الشـاعـر، شـأنه شـأن الكثـيـر من الشعـراء بالمرأة، ولكنه لم يكتف بالإشارة إلى المرأة كائنا رقيقا جميلا، بل تعمق في نظرته إلى عقل

المرأة ومكانتها في المجتمع، حين عبر في أكثر من قصيدة عن تفضيله للمرأة الصامدة القوية على كثير من الرجال حين يتخلون عن مسؤولياتهم تجاه أمتهم وقضاياها الحيوية، ففي قصيدة من قصائده الكثيرة التي تطرق فيها لقضية فلسطين، وللقدس بصورة خاصة يقول بعد أن أبدى يأسه من الرجال:

إن ما صدمناهم على الخيل بطراد

ليم نسيد اللي على القدس سايد

يحرم علينا النوم والشرب والزاد

ويحرم علينا هدوم لبس جدايد

وإن ما فعلنا واعسانا للانفاد

وخلو الحكم إللابسات القلايد

بيضٍ تكيد بكيدها كل من كاد

أحسن من رجالٍ بليا فوايد

وفي قصيدة ثانية، وفي الموضوع نفسه أيضا، يقول:

يا البيض روزوا برايكم كل من راز

اخذوا شوارينا وسووا لنا خصور(*)

---

* خصور: أساور

هلبت تنالون السـعـد عند من فـاز

وحنا لكم نسوان في داخل الدور

وإلا قلعونا من ورا حدود الأهواز

نسكن مع الأعجام في وسط شابور

هذا جزا منهو كسول وعجّاز

خلّه لعلّه دايم الدوم ما يثور

إذن، المرأة القوية الصادقة في مشاعرها تجاه القضايا العامة خير وأحب إلى زيد الحرب من الرجل الضعيف أو السلبي.

وكي لا أتجاوز مساحة «المقدمة»، اكتفي بهذا القدر، وستجد عزيزي القارئ في بحث الدكتورة حصة الرفاعي، وتعقيب الدكتور صباح السويفان الكثير من التفاصيل التي تناولت زيد الحرب الشاعر والإنسان.

زيد الحرب والعزف
على أوتار الأمة

الباحثة: د. حصة سيد زيد الرفاعي(*)

(*) - حاصلة على الدكتوراه في علم الفولكلور من جامعة إنديانا، ١٩٨٢.

- عضوة هيئة التدريس في قسم اللغة العربية - كلية الآداب، جامعة الكويت.

- لها مجموعة من المؤلفات التي تناولت الفولكلور، إلى جانب مشاركتها في تأليف العديد من الكتب.

- لها مجموعة من الأبحاث المنشورة في دوريات علمية مختلفة.

- عضوة في العديد من اللجان العلمية والأكاديمية.

- حاصلة على العديد من الجوائز وشهادات التقدير.

استهلال

حينما تلقينا دعوة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب لكتابة بحث عن الشاعر الكبير زيد الحرب بمناسبة إقامة منارة ثقافية له في مهرجان القرين الثقافي لعام ٢٠٠٤، سعدنا بهذه الدعوة لسببين: أولهما وعي المسؤولين بقيمة الشعر الشعبي وأهمية تكريم رواده.

وثانيهما أننا لا نجهل مكانة الشاعر زيد الحرب في الأدب الكويتي المعاصر، فقد استشهدنا ببعض أبيات قصيدته المشهورة «عسر الدهر» في كتابنا «أغاني البحر، ١٩٨٥».

ومع ذلك لم تتوافر لنا فرصة الغوص في أعماقه والكشف عن توجهاته الفكرية إلا بالاطلاع على مجمل قصائده التي تكرمت ابنته الشاعرة غنيمة زيد الحرب، مشكورة، بجمعها في ديوان يحمل اسم الشاعر صدر عام ١٩٧٨، قدمته بنبذة عن حياته ورحلة كفاحه الشاقة في توفير لقمة العيش. ذلك الكفاح الذي على رغم قسوته لم يشغله عن إبداع قصائد جميلة عابقة بالصدق زاخرة بالحب والولاء لوطنه الكويت ولأمته العربية.

فالناس في الحياة نوعان، نوع يشغله شأنه الخاص عن الدنيا، ويختار العيش على هامشها مكتفيا بالفرجة، ونوع تشغله الدنيا بحلوها ومرها وضجيجها، فيجعل من قلبه وعاء لآلام قومه، ومن أحلامه المثلى صوتا يرتفع في وجه الظلم والقهر والاستبداد.

وقد اختار زيد الحرب أن يكون من هذه الفئة، فلم يقف متفرجا على ما يدور في مجتمعه من انحراف وما يعتري أمته من تخاذل وهوان، بل اختار سبيل التصدي للظاهرة السلبية، ومواجهتها بقلبه وشعره بشجاعة وإصرار قلما يتوافران لغيره من الشعراء.

وما عدا ديوان الشاعر، وبعض الإشارات العابرة التي وردت ضمن دراسات عامة عن الشعر الشعبي في الكويت، لم نعثر على دراسة وافية عن زيد الحرب.

وانطلاقا من إيماننا بأهمية البحث الميداني الذي يشكل حجر الأساس في الدراسات المعاصرة، وإدراكنا التلازم الحتمي بين الإبداع وشخصية المبدع على أنه من المفاتيح المهمة في الولوج إلى أغوار إبداعه واستنباط مدلولاته الفكرية، رغبنا في لقاء أحد أفراد أسرة الشاعر لكي نستكمل هذا الجانب. إلا أن ذلك لم يتحقق لظروف خارجة عن إرادتنا.

ومع ذلك، عولنا على خبرتنا الطويلة في مضمار الدراسات الشعبية، في استكناه الأحداث والوقائع التي شكلت محاور أساسية في شعر زيد الحرب، ما ساعدنا على تلمس أهم الملامح النفسية التي أمدت الشاعر بروافد إبداع لم تنضب حتى آخر دفقة من روحه الطاهرة.



لن نأتي بجديد في استعراض حياة الشاعر زيد الحرب التي قدمت بها ابنته غنيمة ديوانه، ولكننا نأمل في الكشف عن بعض السمات النفسية والفنية التي استبطناها من ثنايا قصائده، والتي دلت على خصائص مميزة تفرد بها الشاعر الحرب، بل تفوق أيضا على غيره من شعراء الخليج والعالم العربي.

ومع ذلك، لا بد لنا من تقديم شذرات من سيرة الشاعر الذاتية تعيننا على تلمس تلك الملامح الواضحة في إبداعاته الشعرية. فالإبداع، كما أشرنا، لا يمكن بأي حال، فصله عن المبدع والظروف التي شكلت البذور الأولى لهذا الإبداع، علاوة على موهبة الفنان الفطرية.

ولد الشاعر زيد عبدالله إبراهيم الحرب عام ١٨٨٧. وعاش مع والديه وأعمامه في منزل جده، حيث كان الكويتيون، ما قبل اكتشاف النفط، يعيشون في نظام الأسرة الممتدة. وامتهن الغوص في بواكير شبابه مع والده وأعمامه في سفينة يملكها عمه عبدالعزيز الحرب. وكان على عادة البحارة الكويتيين، يسافر صيفا في رحلة الغوص على اللؤلؤ، ثم يخرج ثانية في رحلة أخرى شتاء للاتجار في البضائع بين موانئ الهند وأفريقيا.

وفي إحدى رحلات السفر التجاري مرض عمه فأوكل إليه قيادة السفينة. وحينما توفي العم دفن في اليمن. وانتقل الشاعر بعد وفاة عمه إلى العمل في سفن أخرى. وتولى قيادة إحدى سفن غوص الردة، والردة رحلة غوص قصيرة تعقب رحلة الغوص الكبيرة، ويمارس فيها الغوص في الشواطئ القريبة من الكويت (١). وكان الشاعر يتبادل نظم القصائد مع رفاقه في الرحلة.

وكان يسافر أيضا للاتجار في البضائع حتى في الظروف الصعبة وزمن الحرب.

وعندما أصبح وطنه الكويت مهددا من قبل الأعداء، شارك الشاعر في حرب الجهراء، وأسهم مع إخوانه الكويتيين في بناء سور الكويت لحماية البلد من الاعتداء الخارجي.

وبعد اكتشاف النفط وتوقف رحلات الغوص والسفر، عمل الشاعر في مجال التنقيب عنه.

وفي مرحلة لاحقة أصيب الشاعر بفقدان النظر (١٩٥٢)، ولكنه لم يفقد بصيرته المتوقدة دائما، التي ندر أن تتوافر لدى المبصرين.

ونظم في ذلك أبياتا عبرت عن خيبة أمله بما أصابه وشعوره بالعجز الشديد، يقول:

ما تنفع الدنيا بلا شوف وعيان
وعزي لمن مثلي عيونه عصاته
اقعد أنا واقوم ما بين نسوان
ولا يضفي المجمول على عباته
ومن أول لي جيت كالذيب سرحان
محد يامني أجي حول شاته
واليوم لو أرقد معاهم بليوان
ما يخاف مني لو أبات في مباته (٢)

واستمر الشاعر يجاهد بالكلمة المخلصة والحس المرهف، وينافح عن الحق سواء في وطنه أو خارجه. لم يفت العمى في عضده، ولم تنل العاهة من شريان إبداعه المتدفق بالعطاء.

وتعاورت المحن على الشاعر منذ فترة باكرة في حياته، ففقد زوجته الأولى التي رثاها بقصيدة مؤثرة يقول فيها:

يا مل قلب من تصاريف الاشطان
إن قلت هود زاد عيا يليج (٢)

وتزوج الشاعر مرة أخرى ولم يكتب له التوفيق. وفي المرة الثالثة رزق بولد توفي في العام الأول لميلاده، ثم رزق بابنتين كبراهما شاعرة وزوجة الشاعر المعروف يعقوب السبيعي، والثانية الشاعرة غنيمة زيد الحرب التي استقينا من كتابها سيرة شاعرنا الذاتية، وقصائده المؤثرة.

وتمضي الحياة بالشاعر زيد الحرب وهو يصارع بشعره قوى الظلم، ويكشف عن مواطن الفساد التي أودت بمجد العرب وأدت إلى خذلانهم. ولكنه لا يفقد إيمانه

بحدوث معجزة تصلح أحوالهم وتعيد إليهم العزة والسؤدد. ولا يقف الشاعر عند حد الأمنيات، بل يدلهم على طريق الصلاح الذي يبلغونه باتحادهم في وجه المعتدين والطامعين.

واطلب من المعبود ينزاح الغمام
ونتولف كل حبيب مع حبيبه
هذا إن صفا العراق مع مصر والشام
واجتمع الحجاز ورباط المغيب
والعرب تحكم وتضفي بالكمام
ونطرد الصهيون مع أهل الصليب
هذا هوى بالي وشفي والمرام
وكل علة تبرا وأنا جرحي يطيب (٤)

وقد استشهدت الباحثة غنيمة الحرب بهذه الأبيات للدلالة على أمل الشاعر في تحقيق الوحدة العربية التي لا تأتي من دون نضال وكفاح.

ونلاحظ اتجاه الشاعر نحو التوحد مع الحديث الذي يتناوله في قصيدته. وعلى الرغم من أن ذلك الحدث لا يعدو كونه أمنية يسبغ عليها الشاعر سمة الواقع، فإنها تبدو أمرا سهل المنال.

إن القارئ يشعر بالفرح والتفاؤل وهو يتابع إحساس الشاعر بالبهجة، ويلمس غبطته بالحلول التي يطرحها، والتي سوف تسعده وتشفي جراحه. وغالبا ما يؤدي ذلك إلى الامتزاج بين الأنا والنحن. وهذه سمة بارزة في شعر زيد الحرب سوف نناقشها فيما بعد.

وعلى الرغم من أمية الشاعر زيد الحرب، فإن إبداعه الشعري يدل على ثقافة واسعة وذكاء حاد متوقد في تحليل المشكلات الاجتماعية والسياسية، وطرح الحلول العقلانية المناسبة، على ضوء الواقع المعيش. فالوحدة العربية مثلا مرهونة باتفاق الرأي العام العربي ونبذ الخلافات بين الحكام، والتفكير في مصلحة الوطن العربي وصونه من الاستغلال الأجنبي، وهذا لا يكون إلا بالحرب والجهاد وعدم التخاذل والتفاوض مع العدو.

ويتمثل الشاعر بحوادث تاريخية وشواهد بطولية تدل على معرفة عميقة بالتاريخ العربي الإسلامي، ثقفها الشاعر مما سمع ووعى من روايات حفلت بها ذواكر الرواة، وضمتها بطون الكتب والمدونات. وعلى الرغم من أن وسائل الإيصال آنذاك كانت مقصورة على المذياع وبعض المطبوعات المستوردة، فإن الاهتمام بالثقافة والحرص على متابعة مجريات الأمور كانا سمة غالبة في زمن عزت فيه روافد المعرفة.

ومعلوم أن الشاعر زيد الحرب كان، كما أغلب الكويتيين، بحارا يصطاد اللؤلؤ ويجوب البلدان المختلفة للاتجار فيه وفي غيره من البضائع. وكانت أسفاره نافذة مشرعة على ثقافات الشعوب الأخرى، إضافة إلى حرص ربابنة سفن السفر التجارية على اصطحاب رواة القصص والسير المعروفين باسم «المسولفجية: جمع مسولفجي». وكانت الغاية من ذلك تنظيم نوبات الحراسة على ظهر السفينة. فالراوي يساعد البحارة على البقاء مستيقظين، يتابعون بشغف ما يردده من حكايات تاريخية ودينية، وسير بطولات مستقاة من التراث العربي، وهذا في حد ذاته مصدر مهم من مصادر الثقافة في مجتمع البحارة، علاوة على ترديد الحكم والأمثال وسرد التجارب الشخصية والمغامرات والأهوال التي يتعرض لها البحار وهو يمخر عباب المحيطات، ويصارع الأمواج العاتية على ظهر سفينته الشراعية الصغيرة (٥).

هذه العوامل جميعها ساعدت، إلى حد كبير، على اتساع مدارك الشاعر وإثراء حصيلته من المعارف التي أفادته في صياغة أشعاره العميقة، ولا نغفل ذكاءه الشديد ورهافة حسه وإخلاصه اللامحدود لوطنه وعروبته، مما حدا به إلى توظيف كل إمكاناته الثقافية وطاقاته الشعرية لهذا الغرض النبيل.

يقول في قصيدة «قل هو الله أحد» حاثا العرب على مجاهدة الأعداء كما فعل أجدادهم الأولون:

قـل هـو الـلـه أحـــــــــــد
خـــالق الأرواح في وسط الجـــســـد
الواحـد المعـبـود عـالي في سـمـاه
مـــقـــسم الأرزاق مـــا ينسى أحـــد
ثم صــلاتي على النبي سـيـد قـريش
الذي لـلدين بمر الله اجـــتـــهــد
طيـمـوا المخـتـار ومـا قـال الرسـول
واشــهـدوا لـه الحق فـيـمـا هو شـهـد
وامـــسكوا القــرآن وآياته الشــريف
والعنوا من خـــان بآياتـه وجـــحـــد

إلى أن يقول ناصحا العرب بالتوحد والجهاد من أجل الاستقلال والحرية:

يا عـــرب قـــومـــوا بعـــزم الله سـوى
أنتم ليـوث الحــرب وافين العـــهـــد
واربطوا حـــبل الوصل مـــا بينكم
في صناجلهـــا وحـــبل من مـــســـد
مـــا يوخـــذ اســتـــقـــلال في طيب وهون
إلا بحـــد الســـيف لي حل الوعـــد
وأمـهـات أم خـمـس مـصـقـول السـلاح
وفي أطواب الروس شـدخـوا كـالرعـد(٦)
ومـــا فـــعل خـــالد وطارق بن زياد
ومـا فـعل حـيـدر وحـمـزة مع سـعـد
وســـيلوا الوديان من دم العـــدو
من دم قـوم السـبت مع قـوم الأحـــد
وطهــــروا دياركم من اليــــهـــود
لعـيـون صـافي الخـد مـركـوز النهـد

ثم يقول محذرا إياهم من التخاذل والتفاوض مع العدو:

واعلمـوا كـثـر المفـاوض مـا يفـيـد
ومـجلس أمــريكا خـارب مـابه سـعـد
وافـــعلوا بافـــعـــال أبا بكر وعـــمـــر
واتركـوا كـثـر النمـايم والحـســد

مع ذه وسـلامي للعـرب كلهم يميع

سني وشيعي ومسيحي ومن سجد..

والوكـيل الله مـا هو أنا وكـيل

كل على دينه ويلقى مـا عـبـد ... (٧)

ويتبين لنا إدراك الشاعر الفرق بين نصارى أوروبا وأمريكا من المستعمرين ومسيحيي العالم العربي، ممن يجدر بنا أن نتعامل معهم على أنهم إخواننا في العروبة. وهو بهذا يلتزم بتعاليم الإسلام في احترام الديانات الأخرى.

ولا ريب في أن شاعرا كما زيد الحرب، رقيق الإحساس، نابض القلب بحب وطنه معتزا بهويته القومية، نذر حياته للدفاع عنها بكل ما يملك من أسلحة الشعر، لا بد أن يهوي مبكرا من صهوة إبداعه كما يهوي البطل في المعركة. ليس مهزوما فيها بل مخذول من قدر أقوى منه ومنا جميعا. أخرس صوت همته وحطم سيف يراعه المسلول، فقد مرض شاعرنا وغالب المرض لسنوات في شجاعة لم يستطع معها الداء أن يخمد جذوة مشاعره المتقدة أبدا، ولكن الأجل المحتوم وافاه في ١٩٧٢/٢/٢١ وهو يعد ابنته غنيمة بعقود من لآلئ شعره تنظمها في كتاب.

وغاب زيد الحرب، ولكن ذكراه العطرة تبقى خالدة في قصائد جميلة عابقة بحب الوطن والحرية والكرامة العربية.

وبعد سنوات قليلة، برت الابنة الوفية بوعدها، وأصدرت ديوانا يجمع بعض شعر أبيها مما سمعت منه، ومما روى لها صحبه وعشاق شعره. ولكن بعض القصائد ضاع، باعتراف الابنة، في عالم النسيان، مع أن ما بقي من شعر زيد الحرب يظل شاهدا على موهبة قلما يجود بمثلها الدهر.

الشعر قيثارة زيد الحرب

زيد الحرب شاعر شعبي بكل المقاييس المتعارف عليها عالميا. ولا نعني بذلك نظم الشاعر قصائده الرائعة

باللهجة المحلية. فالعامية ليست معيارا كافيا للحكم على شعبية النص، لأن للأدب الشعبي عموما والشعر الشعبي تحديدا خصائص تميزه عن سواه من أنماط الإبداع الإنساني. وتقوم هذه الخصائص على أساس قبول الناس للإبداع وتداوله، إذا ما وجدوا فيه تعبيرا صادقا عن نبض حياتهم ورؤاهم المستقبلية في عيش أفضل. ولا تقل الوظيفة الاجتماعية أهمية عن عامل القبول الجمعي، فالشاعر الشعبي لا يختلف عن غيره من الشعراء في تصديه لكل ما يعترض مجتمعه من محن وأزمات، بل إن شعره القريب من لغة الخطاب اليومي، أمده بقدر أكبر من المفردات يصوغ بها هموم مواطنيه، ويكشف عن أملهم في مستقبل أفضل. ولا ينال من شعبية النص الشعري كون الشاعر معروف الهوية طالما تخطت منظوماته دائرة الفردية الضيقة إلى موقع أرحب وأكثر شمولية، يؤهله لتبني قضايا شعبه المصيرية. وكلما نجح في مهمته ازداد احتفاء الناس به، وأقبلوا على التغني بإبداعه الذي يكتسب بمرور الزمن هوية قومية مميزة.

هكذا كان زيد الحرب، سواء فيما عالج من أمور حميمة متجذرة في نسيج وطنه وأمته، أو في أسلوب صوغ شعره وفق الأشكال الفنية الخاصة بالشعر الشعبي (٨)، علاوة على امتلاكه طبيعة شفافة أعانته على قراءة الأحداث واستكناه دلالاتها بفطنة ثاقبة لم تتوافر لشاعر آخر.

هذه القدرات الهائلة المقترنة بطاقات إبداعية ثرية، كفلت للشاعر التفوق على منافسيه.

أما الأغراض التي تناولها زيد الحرب، فلا تخرج عن نطاق الأغراض المتداولة في الشعر العربي سواء الفصيح أو العامي. وقد استعرضتها الباحثة غنيمة زيد الحرب في الديوان. ولا حاجة بنا لتكرارها. كما أن بعض قصائد زيد الحرب يتداخل فيها أكثر من غرض، حيث يمتزج المدح بالشكوى وربما يختلط ذلك مع النصح والإرشاد أو العتاب. والواضح أن الشاعر يتخذ من بعض الأغراض

مدخلا إلى قضية مهمة يطرحها سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية. وهذا ملمح بارز في قصائد زيد الحرب سوف نكشف عنه في معرض حديثنا عن خصائص شعره.

معاني شعر زيد الحرب ودلالاته:

أولا: الشاعر لسان حال أمته

الشاعر زيد الحرب لم يكن فقط ناقلا لما يرى ويشهد من أحداث ومواقف إنسانية، بل كان منغمسا فيها، متغلغلا في أعماقها، منفعلا بتفاصيلها الدقيقة، مما يدل بوضوح على امتزاج الشاعر بوجدان قومه.

ومما كثف هذا الامتزاج خوض الشاعر الحرب تجارب حياتية مماثلة لتجارب الآخرين، أهلته للتعبير عنها بصدق خالص يؤثر في نفس السامع أو القارئ.

ونستشهد على ذلك بقصيدته المشهورة «عسر الدهر» التي أوردنا بعضا منها في كتابنا «أغاني البحر في الكويت: دراسة فولكلورية ١٩٨٥». وذكرت غنيمة زيد الحرب نصها كاملا في ديوان زيد الحرب. ونظمها في عام الكساد الاقتصادي الذي أصاب تجارة اللؤلؤ في الكويت عام ١٩٢٩. ويسائل فيها الشاعر تجار اللؤلؤ عن حصيلة جهد الغواص المسكين في صيد اللآلئ خلال موسم الغوص الشاق المضني،يقول:

عسر الدهر شابح زنودي بكمبار
والوي على العرقوب زنجيل الأفكار (٩)
وظليت لنا من دار لي دار محتار
تايه بغبات الفكر والهواجس

وبعد تصوير معاناته من عسر الدهر وجور الأيام التي تناولها في عدد من الرباعيات التي تشكل بنية القصيدة، يعرج الشاعر على موضوعها الأساسي:

وتجـــارنا عـــقب المعـــرفـــة جـــفـــونا
زل الشـتــا يا حـمـود مـا سـقـمـونا (١٠)
مــــادري عـــســـر فـــيــــهم وإلا نســـونا
الله عليـــهم وإن نووا بالتــــعـــاكـــيـس
هم مـــا دروا باللي جـــرى الغــوص كله
مـثل الحـمـيـر ننقـاد خـمـسـة أهله (١١)
نـشكـي العـــــرا والجـــــوع ويـا المذلـة
ونركض بخـدمـتـهم سـوات البنابيس (١٢)
باللـه عليـــــهم وين ذيك التــــبــــايب
قل لي غـــدت بين الخــلايج نهــايب (١٣)
وإلا عليـــهـــا غلقـــوا بالعـــصــــايب
بس حـــاســبـــونا بالحــبـــر والقـــراطيس
وين القـــمــــاش اللي من الدر جـــبـنا
اللـه عـلـيـــــهـم إن كـلـوا مـن تعـــــبـنـا
مـــــا تعــــتـــــمـــــر دار بالظلم تبنى
شيء يغـــضب الله ويـرضى به إبليس
قـــالوا العـــذر يا زيد جـــتنا علومك
واحـنـا بـعــــد والـلـه هـم مـــــا نـلـومـك
مـــيـــر اســتــعين بالله يقـــوي عـــزومك
لم يجي شـــمــــلان نرخي لك الكيس
قـــــمـــــاشـنـا بـالهـنـد والله طـايـح
واحنا غـــدينا مــا بين شـــاني وصـــايح
هـذي السنة صـــارت علينا فـــضـــايح
أنتم تبـــون فلوس واحنا مـــفـــاليس..

نستشف من المقاطع المذكورة أن الشاعر لم يتكلم فقط على لسان البحار المظلوم الذي سلب التاجر حقه وثمرة جهده وعرقه، بل ينقل إلينا وجهة نظر تاجر اللؤلؤ وهو يشرح للشاعر الظروف العصيبة التي حالت دون بيع المحصول، والإيفاء بمستحقات البحارة في موعدها المقرر. ويطلب منه الصبر حتى يعود «شملان»، أحد تجار اللؤلؤ الذي سافر لبيع حصيلة الموسم في الأسواق العالمية، وقد عاد التاجر فيما بعد وهو يحمل الربح الوفير.

ويسترعي انتباه القارئ أسلوب الحوار الدائر بين الشاعر والتجار، وهم يطلبون منه التذرع بالصبر وانتظار الفرج.

ولعل الشاعر أراد بذلك أن يخفف من حدة التوتر بين الطرفين، نظرا إلى حاجة كل منهما إلى الآخر. فالتاجر والبحار كفتان متعادلتان في ميزان الاقتصاد الكويتي. ولهذا السبب لا نتفق مع أحد الدارسين الذي فهم القصيدة على أنها «صورة لانحراف العلاقة بين التاجر والبحارة الأجراء، ومماطلة التجار في دفع حقوقهم» (١٤). فالتجار لم يتخلفوا عن دفع مستحقات البحارة إلا لكساد أصاب تجارتهم، وقد فهم الشاعر هذا العذر وضمنه قصيدته.

وتتوالى مقطوعات هذه القصيدة الطويلة ليتطرق الشاعر إلى التغير الذي طرأ على أخلاق التجار من المروءة والجود إلى القسوة والتسلط. ويستطرد في شرح العلاقة الحميمة بين البحارة وأصحاب السفن. فلولا الغواصون لم يستطع التجار الحصول على اللؤلؤ عصب الاقتصاد في الكويت، فالبحار بمنزلة الثروة الزراعية التي لا تقوم إلا بالنخيل.

ولا شك في أن زيد الحرب كان يتحدث عن أزمة حقيقية مر بها مع زملائه من الغواصين. فهو في هذه المرحلة من حياته كان بحارا يمتهن الغوص على اللؤلؤ، وينتظر مقابل عمله بفارغ الصبر.

ثم يخاطب الشاعر أمير البلاد ناصحا إياه بأهمية الاتكال على العمالة الوطنية، لما تحمله من إخلاص للوطن لا يتوافر لدى الغريب. ويعرج على ذكر أقوام سادوا ثم بادوا نتيجة خضوعهم للأجانب وانضوائهم تحت لوائهم. يقول:

حنا لكم مثل النخل والزراعة

وحنا خزاينكم وحنا بضاعة

أهل الوطن مخصوص بأمر وطاعة

والا الغريب أن هج خلوه ببليس (١٥)

وين الرشــيــد أهل الســيــوف الهنادي
اللـي حكمــوا نجــد حــضــر وبوادي
ويا مــا قطمـوا بالسـيف خـشم الأعــادي
واليــوم مــا يســوون خــمــســة تقــاليس
ووين الشــريف أشــراف حــضــر وبدوان
ســيــد الجــمــيع مطوع كل من كــان
من بيت الرســول وسلسلة سيـد الأكــوان
راحــوا من الحــجــاز كلهم مــفــاليس

حتى يقول:

وانت اعــتــبــر يا شــيخ وراع الرعــايا
دنيـــاك هذي تنطوي كــــالحـــــزايا
جــدك ترى مــبــارك مــعطي العطايا
مـصـخـر صم الرمك مـتـعب العيس (١٦)

ويختم القصيدة بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا:

تمت وذكــــروا الله يا الحـــاضـــرينا
وصلوا علـى المدفـــون بـأرض المدينـة
أحــمــد رســول الله واحنا تابعــينه
مع الصـحـابة أهل القـبـور المداريس (١٧)

هذه القصيدة الرائعة في صورها، العميقة في دلالاتها عكست، بحق، ثقافة الشاعر التراثية والتاريخية الواسعة. تلك الثقافة التي أحسن توظيفها في طرح أفكاره ومشاعره لتتضح بالصدق والواقعية. فشاعرنا على الرغم من أميته، واسع الأفق، حاد الذكاء، منحه الله موهبة فطرية فذة. وكل ذلك ساعده على امتلاك نواصي الشعر وامتطاء صهوة ريادته.

وهذا يلزمنا بإعادة النظر في مفهوم الثقافة الذي يربطه الكثيرون بالقدرة على القراءة والكتابة. تلك القدرة التي لم تتيسر للغالبية العظمى من أفذاذ الثقافة الشعبية من شعراء ومبدعين تفوقوا بأدواتهم الفكرية والفنية على كثير ممن نعدهم مثقفين وفق المعيار الضيق للثقافة. فالثقافة ليست حكرا على العارفين بأصول القراءة

والكتابة، لانها عالم رحب يتخطى ذلك إلى المعايشة الفعلية لتفاصيل الحياة بكل مداراتها الاجتماعية والسياسية والتاريخية والاقتصادية (١٨).

والشاعر إن لم يستطع أن يقرأ، فهو يسمع ويطلع ويتابع ويناقش. وبهذا كله تتكون حصيلته الفكرية من خلال الوعي والقدرة على سبر أغوار الواقع، ومتابعة جميع التحولات التي تطرأ عليه.

والشاعر الفنان يمتاح صوره وأفكاره من بئر الواقع ليصوغها شعرا حافلا بالصدق والألم والمعاناة، ولكنه لا يخلو من الأمل في تغير الجانب السلبي لهذا الواقع إلى الأفضل، وعلى هذا الأساس نختلف مع الشاعرة غنيمة زيد الحرب في قولها: «وإذا كان البعض يرى في العامية نقطة ضعف في الشاعر النبطي أو الشعبي، فإنها لا تكون كذلك عندما نعلم أنها قيلت في وقت لم يكن فيه فهم اللغة العربية الفصحى سائدا في مجتمع معظم أفراده أميون. وكانت أداة التوعية بينهم كلمة تنطق وتسمع بين الأفراد مباشرة لا عن طريق وسائل الإعلام السائدة في الوقت الحاضر. وعلى هذا الأساس كان الشعر النبطي في الفترة التي عاشها الشاعر (من عام ١٨٨٧ - ١٩٧٢ إذا طرحنا منها العشرين سنة الأخيرة) هو اللسان الناطق عن الأفراد المعبر عن قضاياهم وأمور حياتهم، وهو المسجل للأحداث المؤرخ لها....) (١٩).

وعلى الرغم من صحة رأي المؤلفة في شيوع الشعر العامي في مرحلة لم تكتمل فيها أدوات الإعلام المعاصر، فإننا نخالفها الرأي في أمرين:

١- خلطها بين مفهومي العامي والشعبي، وهذا المنزلق يقع فيه كثير من غير المعنيين بالدراسات الشعبية، لتعويلهم على اللغة فقط معيارا للحكم على مصداقية النص الشعبي.

ونحسب أننا استوفينا هذه المسألة في بداية البحث ولا حاجة بنا لتكرار ما ذكرنا، ومع ذلك نؤكد أهمية

تجاوز الشاعر النزعة الفردية إلى الامتزاج التام بالوجدان الجمعي.

وواضح أن الشاعر زيد الحرب قد تخطى الحد الفاصل بين الأنا والنحن ليكتسب شعره الهوية الشعبية، ويتردد على ألسنة الناس غناء وإنشادا.

واللافت أن الكاتبة تدرك أهمية تعبير الشاعر عن وجدان الأمة، وتؤكد أن القيمة الفعلية للشاعر لا تكون إلا بإدراكه الأحداث المحلية والقومية وتفاعله وانفعاله بها.

وتستشهد بوالدها الذي تخطى الحدود الذاتية والقومية بنجاح منقطع النظير. تقول:

«.. الشاعر الذي تعدى حدود الذات ليعبر عن مشاعر مواطنيه وأحاسيسهم. والذي ترجم آلام قومه وآمالهم إلى قصائد رائعة ترنم بها البحار على ظهر سفينته، وشدا بها المزارع في مزرعته، ورددتها النساء وهن يحلمن بالعودة، عودة الآباء والأبناء والأزواج من رحلة الغوص، هذا الشاعر الذي تعدى حدود ذاته ليعبر عن مشاعر مواطنيه، لم يعترف بالحدود الإقليمية التي تفصله عن وطنه العربي الكبير، فتعدى تلك الحدود ليخط لنا خريطة العالم العربي، وقد خلت من الحدود الداخلية التي تفصل بين بلد وآخر داخل الوطن العربي...» (٢٠).

وهكذا تبدي غنيمة الحرب إدراكا واعيا بسمات الشعر الشعبي ووسائل انتشاره، التي لم ولن يؤثر فيها صوغه باللهجة المحلية.

٢ - قول المؤلفة بشكل غير مباشر، بإحلال وسائل الإعلام المعاصر بدائل للشعر الشعبي.

ونحن على الرغم من اتفاقنا معها في أن الشعر كان الوسيلة الإعلامية الوحيدة، وأن الكلمة الشفهية كانت بديلا للكلمة المكتوبة، فإننا نرفض القول بأن وسائل الإعلام قد قلصت مساحة الشعر الشعبي. الشعر الشعبي لا يزال إبداعا فاعلا مفعما بالحياة، له محافله وشعراؤه الذين لا يزالون ينشطون في ممارسة إبداعهم جنبا إلى جنب مع ألوان الإبداع الشعري الأخرى.

ولنا في شعراء النبط في مناطق الخليج والجزيرة خير مثال على ذلك. وكذلك لم تنل وسائل الإيصال الجماهيري من الملاحم الشعبية الشائعة في أرجاء أخرى من الوطن العربي. فلا يزال شعراء ورواة سيرة عنترة بن شداد العبسي ناشطين في تداولها شعرا ونثرا، في صعيد مصر. وكذلك الحال بالنسبة إلى سيرة بني هلال التي تشيع في أرجاء المغرب العربي.

وكما أثرت وسائل الإعلام ينابيع الثقافة وساهمت في تنوع مصادرها، فقد ساهمت إلى حد كبير في الحفاظ على أنماط المأثور الشعبي والعمل على نشره وترويجه، فما كان يستغرق وقتا طويلا للانتقال عبر الزمان والمكان، صار يتخطى الحدود اليوم ويشيع بين المجتمعات في فترات زمنية وجيزة. وهكذا ساعدت هذه الوسائل التقنية المتطورة المأثور الشعبي على الانفتاح على بيئات أخرى تطلع عليه وتتأثر به وتؤثر فيه، ما هيأ مجالا رحبا للتداخل الثقافي بين الشعوب.

ثانيا: المنحى الفلسفي عن طريق التقابل في المعاني والصور

ويبدو التقابل بين الصور والمعاني واضحا في قصيدة «اليوم أنا أمشي على ظاهر القاع»، وهي قصيدة يفلسف فيها الشاعر نظرته إلى الحياة على أنها حركة ونشاط على سطح الأرض، في حين أن الموت نزول إلى باطن الأرض وخلود إلى السكون وفقدان الحركة، يقول:

اليوم أنا أمشي على ظاهر القاع

ولا بد يوم أواسد حدرها

ثم تتوالد الصور الفرعية الناجمة عن هذه الصورة الأساسية القائمة على المقارنة بين الحركة والسكون. فالحياة حركة بكل مستلزماتها من العمل والاجتهاد في توفير لقمة العيش التي ربما تتيسر أو يعسر منالها. ولا

يقتصر الأمر على الحركة الرتيبة الناجمة عن تجوال الإنسان في دروب الكون، بل ما يصاحب تلك الحركة من مشاعر حلوة أو مرة تنتج من تحقق أو عدم تحقق أمنيات الإنسان في العيش الكريم، يقول:

بجاهد الدنيا بمجداف وشراع
ما دمت أنا حي وأمشي بظهرها
مرة بغبّة سور ومرة بحر باع
ومرة بصافيها ومرة ابكدرها
ومرة يقل الزاد ونكيل بالصاع
ومرة تفارات يبذك كثرها (٢١)
أنا حصان وتبعتني بمصراع
يوم تسحبني ويوم أجرها
ولا سحبتني باع جريتها ذراع
تبغي لي الظلمة وأبغي سفرها

ويمضي الشاعر في قصيدته مصورا صراعه مع الحياة، ثم تحدث نقلة مفاجئة يتحول فيها الشاعر من الشأن الخاص إلى الشأن العام، حين يصور حال المسلمين في ماضيهم وحاضرهم، فهم أتباع الرسول محمد صلوات الله وسلامه عليه، الذي دانت له الدنيا في الهند وأوروبا على أيدي صحبه الأبرار وفرسانه الشجعان مثل طارق ابن زياد فاتح بلاد الأندلس. ثم يستعرض حال المسلمين الآن وكيف انحدروا من الرئاسة إلى التبعية والذل. ويتخذ فلسطين نموذجا على تحول العرب والمسلمين من العز والسؤدد إلى الاستسلام والخنوع، يقول:

حنا هل التوحيد في سيف وذراع
وحنا سنام العز وذروة وبرها
وحنا ملوك الأرض وحنا لها سباع
وحنا نجوم الليل وحنا قمرها
وحنا أحسن المخلوق في خلق وطباع
ورايتنا في كل وادي نشرها
محمد عبر للهند والهند له طاع
وبحور أوروبا جيش طارق عبرها

ليــمن حكمناها بثـــلاثة الأرباع

وربع لنا الجـــزية يدي ثمـــرها

وحنا لهـــا رأس وصـــرنا لهـــا أكــواع

وملوكنا للروم طايح قــــــدرها

شـــوفـوا فلسطين بهـا الذل كـد شـاع

ويهـود خـيـبـر شـيـعـوا في خـفـرها

هـذا السـمـــا مـا زال ومـا زالت القـاع

ولا غـيــرت سنينهـــا مع شـهـــرها

أنتم تـغــيـــرتوا في شين الأطبـــاع

وذل سلب أيمانكم من صـــدرها (٢٢)

وأنـتم تـعــــذرتوا مـن قل الأوضـــاع

وقلتــوا المصـــانع راي أوروبا عــمـــرها

وهكذا يمضي الشاعر في تصوير حال العرب الذين تغيرت نفوسهم من العز إلى الذل والخنوع، على الرغم من أن الدنيا لم تتغير. وهم مبهورون بما لدى أوروبا من مصانع هم قادرون على إنشاء مثلها، ولكنهم متخاذلون يستمرئون حياة الذل والهوان. وهم كما الرماد المتخلف عن نار الشجاعة التي ميزت العرب الأول وأهلتهم لتسيد الأرض.

ويختم الشاعر الحرب قصيدته المؤثرة بتشبيه العرب بالأموات، وهو يناديهم ولا يسمعون النداء، ويتمنى في النهاية أمنية يائسة لا تتحقق، حين يدعو صناديد العرب وأشاوسهم القدماء أن ينهضوا من قبورهم ليبادروا بالإصلاح، ويدفن عرب الحاضر الذين لا تختلف حالهم عن حال الموتى.

راحـوا ليـوث الحـرب وطفـوا الاشـمـاع

وظلت تخـــور بالمفـــالي بقـــرها

جـــدودكم نار بهـــا الصـمغ كـــد مـــاع

وأنتم رمـــاد طايح من جـــمـــرها

ليت الذي حـــدر الثـــرى تطلعـه القـاع

وليت الذي فـوق الثـرى هو حـدرها (٢٣)

وتتكرر هنا ظاهرة المزج بين الأنا والنحن. وهي ظاهرة سائدة في شعر زيد الحرب.

فأغلب قصائده تعكس مدى انشغاله بالشأن العام لأمته وقضاياها المصيرية، تلك القضايا التي استقطبت كما كبيرا من شعره.

وتجدر الإشارة إلى أن فكرة التناقض الثنائي بين الكلمات والمعاني ظاهرة مهمة في دراسة المأثور الشعبي. وقد طبقها أصحاب النظرية البنائية على دراسة الحكايات الشعبية والأساطير، وكان هدفهم من رصد المتناقضات، التوصل إلى الحقيقة الكامنة وراءها (٢٤).

وها هو شاعرنا يرسم بأدواته الإبداعية البسيطة، الإطار العام لهذه الفلسفة التي لم يسمع بها، والتي شغلت الباحثين ردحا من الزمن. وها هو يستغلها، بعفوية واضحة، في التعبير عن حقيقة مهمة تتصل بتدهور أحوال العرب في الوقت الحاضر.

ولم تقتصر فكرة التقابل بين المعاني على القصيدة المذكورة، بل شكلت سمة غالبة في شعر زيد الحرب وبالأخص شعره القومي.

ثالثا: عمق المعاني والدلالات

شعر زيد الحرب يتخطى الوصف المجرد للظاهرة التي يتناولها إلى الغوص في ثناياها ليستشف منها عبرة وعظة، أو يستخدمها في الدعوة إلى منحى سلوكي أفضل، سواء على المستوى المحلي أو القومي، كما في قصيدة «مجلس التأسيس» التي يقول فيها:

يا مجلس التأسيس احنا انتخبناك
نبغيك لا تهنا بدرب تدله
ولا ضاعت الأفكار نلوذ بحماك
وتصير مثل الفرس نركد بظله
وانت الطبيب علاجنا مرهم دواك
وانت الشفا للشعب من كل علة
والشيخ ما قصر على الملك ولاك
وأرخص لك الغالي دقاقه وجله

واحنا على كـيـفك ونـدوّر رضـاك

وحـقك علينا يطيـعك الشـعب كله

ونحب من حـبـيت ونعـادي عـداك

وكل مـا يطوي بعـزم نفله (٢٥)

ولا ابتليت بسـو نبلى ببلواك

ونشـاركك في كل درب تحله

كله لاجل هذا حنا نصـبناك

نبـفـيك مـثل الدرع دون المذلة

دين الحنيـفي خله اليوم مـبداك

وشـرع النبي المختـار تمشي ارضا له

وتمضي القصيدة حتى يقول:

لا تصير مـثل الملح من شرب من ماك

لازم تصـيبـه في المصـارين علة

المجـرم الخـوان تضـحك الي جـاك

واللص تسـمح له ولو داس زله (٢٦)

وتقـول لو شـفـتـه دخل منزل نسـاك

خله بسـبـيله يروح بالك تتله

ذا يفتن الجـمـهـور هذا مع ذاك

ويكثـر الفـوضـات في كل حله

مـا تصلح الديرة وهو ذاك برداك

يصـبح نظامك والحكم فـيـه خله

إلى أن يقول داعيا المجلس إلى التلاحم مع الشعب من أجل بناء الوطن:

جـعل الردى واللاش والفن يفـداك

أمـشي الطريج اللي مـشـاه بن بيله

ولي عطيت الحق فـالكل وياك

لو طال حكمك مـجلسك مـا نمله

وكل الأهالي طايعـة تمضي أمـضـاك

ويشـهـد لك التـاريخ وسط السجله (٢٧)

ونلاحظ استشهاد الشاعر بالزعيم الجزائري أحمد بن بيلا الذي قاد حركة تحرير بلاده من الاستعمار الفرنسي.

رابعا: الثقافة الواسعة والإلمام بكل القضايا الإقليمية والقومية مع معرفة عميقة بالأحداث التاريخية

هذه الثقافة الواسعة مكنت الشاعر من عقد مقارنات بين الماضي والحاضر، كما لاحظنا في قصيدة «اليوم أمشي على ظاهر القاع»، الهدف منها دعوة أولياء الأمور إلى السير على نهج الأولين في علاج الأوضاع وإعلاء شأن الأمة، ونستشهد بما قال الشاعر في الذكرى الثانية لاحتلال فلسطين:

قلت أنا ويلاه من كثر القهر
شاب راسي وهملن دمع العيون
من كثر ما اشوف في وقت ظهر
نومس الخنزير والليث امغبون (٢٨)
يالعرب ترضون في هذا الخبر
تصعد الانذال وأنتم تنزلون
وتدعون أنكم سادات البشر
شالسبب بعزومكم ما تنهضون
من كسا فارس بالدم الحمر
لين خلا الفرس عنه يرحلون
ومن هدم غيوان كسرى واشتهر
ومن سقى قيصر في كاف ونون
ومن حكم الأمصار في عز وفخر
ومن علا صيته في ماضي القرون
ومن ترس بالبرثم فاض البحر
ومن طفلهم الجبابره يسجدون (٢٩)

إلى أن يقول:

وين أبا الحسين وعثمان وعمر
ومن تخلف عقبهم لو يحضرون
رجلهم الفين وأنتم كانفر
وكلكم من جد واحد تدعون

وتتوالى أبيات القصيدة، فيشيد الشاعر بالكفاح الفلسطيني ضد المحتلين ويأسف لتخلي العرب عنهم:

صــاح بيت المقــدس عـامين وشـهــر
يدعي الداعي ولا له تسـمـعــون
وجــاهدوا أهله في ســيف أو ظفــر
في وقــود الحــرب دايم يصــهلون
انشــدوا الشــمس عنهم والقــمــر
مع نجــوم الليل لأنهم يشــهــدون
هم ليــوث الحــرب في وادي الخطر
وافــعلوا فــعل الصــحــابة الأولون
يوم قــوم السـبت لاذوا بمن كــفــر
قــامــوا الإســلام فــيكم يلتــجــون
كــخــريف الصــيف إلى طاح المطر
لا يســر الأرض ولا أنتم تنفــعــون
تزعـمـون عن جـورج هو سـيـد البـشـر
ولدنانيــر الســيــاســة تركــضــون

وأخيرا يدعو العرب والمسلمين لنبذ التخاذل والتفكك ورفع الغشاوة عن أعينهم، والنهوض في وجه المستعمر الغادر، ومقارعته بالسيف كما فعل أجدادهم الشجعان، ليكون مآلهم الجنة التي أعدها الله للمجاهدين:

يا أمــــة الإســــلام بابدي لي نظر
اضــربوا بالســيف كل خــاين يخــون
وانزعــوا الظلمــة وفــوتوا للســفــر
مــــا فــعلوا أجــدادكم به تفــعلون
حــتى تنالون المعــزة والفــخــر
وفي جنــان الخلـد بـالـلـه تسكنون
هي لكم مــضــمــونه دب الدهر
مــــا دام أنتم بالشــهــادة تنطقــون
والوصل مــــا بينكم ســــر وجــهــر
في حــدود السـيف وجــهــاد يكون
واعــرفــوا أن العــز في راس الخطر
ومــــا يصــعــب أوله لازم يهــون

وصلوا على المختار هو سيد البشر
هو شفيع يوقت يوم تحشرون (٣٠)

وتتكرر لدى الشاعر فكرة نبذ العرب التخاذل، والتمثل بالسلف الصالح في أغلب قصائده القومية إن لم يكن جلها. وهدف الشاعر من ذلك حث العرب على مقاومة كل أشكال الاحتلال البغيض، وتحقيق الاستقلال والسيادة.

خامسا: حب الشخصيات القومية باعث على التذكير بمسؤوليتها تجاه الأمة

الشاعر زيد الحرب عاصر بعض الشخصيات القومية التي كان لها فضل قيادة حركات التحرير في الوطن العربي. وأبرز هذه الشخصيات الزعيم الخالد جمال عبدالناصر الذي شغف به الشاعر، وعده الفارس الهمام الذي سوف يحيي أمجاد الأمة ويسترد كرامتها.

ولم يكن حب زيد الحرب لعبد الناصر رومانسيا حالما كأي إنسان عادي، بل كان حبا يمتزج بالخوف على مقدرات الأمة، وحث عبدالناصر على الحفاظ عليها. والشاعر هنا لم يخرج على الخط الوطني والقومي الذي ترسمه في شعره. فهو بحكم انتمائه العربي، لا يستطيع أن يقف متفرجا على ما يجري هنا وهناك من مزايدات على مقدرات الشعب، بل يسخر جل إمكاناته الشعرية والمعرفية لإبداء النصح والمساهمة في تقديم الحلول المناسبة.

ففي قصيدة «مخاطبة عبدالناصر» التي نظمها قبل حرب ١٩٦٧، يختلط حب الشاعر الجارف لعبد الناصر مع خوفه على قناة السويس من سيطرة الأعداء. فقناة السويس ليست في تصوره، ملكا خالصا لمصر، بل ملك كل عربي حريص على كرامة العرب وعزتهم، ولذلك يحذر عبدالناصر من انتظار المفاوضات مع أمريكا، لأن التفاوض هو سبيل التخاذل والخنوع والرضوخ للعدو. والمفاوضات خدعة يتذرع بها الأعداء لاستلاب ثروات مصر، والاستحواذ على مقدراتها عن طريق السيطرة على قناة السويس، وإن سيادة مصر مرهونة بتحرير قناة السويس.

والشاعر يخير القائد العربي بين حياة الذل والعبودية، وحياة العز التي لا تكون إلا بالحرب، والذود عن ذلك الممر المائي الاستراتيجي بكل ما يلزم من تضحيات.

ويشبه زيد الحرب قناة السويس بالوريد الذي إذا عطب، لا يمكن معالجة أعراضه الخطرة. كما يرى عبدالناصر سراجا يضيء وادي النيل، ويتمنى لو تقلد مهمة حراسة بابه ليتملى برؤياه.

ولكنه يأسى لعجزه عن ذلك لكبر سنه وفقد بصره. وهو لا يملك سوى شعره النابض بحب العروبة. ويدعو له بالنصر والسيادة على قبرص وجبل طارق والطور أسوة بأجداده الميامين.

واللافت أن الشاعر لا يذكر أسماء الشخصيات التاريخية صراحة، بل يدعو إلى الاقتداء بمآثرها، وهو لا يرى في التصريح أمرا لازما فيما لو كانت الغاية المنشودة هي التأسي بالأفعال والمنجزات، التي تكفي في رأيه للاستدلال على أصحابها. يقول:

عبدالناصر كان مني تبي الشور
كثر المفاوض يا فتى ما يفيدك
وترى الرماد لو نفخ ما يقلب الفور
ومجلس أمريكا ينقصك ما يزيدك
ويالك تظن بالطيب يمشي لك الثور
الا أن تسوقه والعصا في يمينك
وإن كان ما تقدر على الثور بالهور
اصبر تحرقه ناركم من وقيدك
واحذر من الطاغوت لا يدور لك دور
ينصب حبايل لين فخه يصيدك
ومثلك يعرف اللص هو منقع البور
ان واعدك لا شك ينكر وعيدك
واخذ الحذر من راعي الكذب والجور
من خوفتي ياسيد يصير سيدك
يقضب قناة سويس ويقلب على الخور
وتصير له مملوك فيما يريدك (٣١)

ترى حـــيـــاة الذل نار لهـــا طور
والعـــز بالبـــارود وصـــافي حـــديدك
وقـولت عـسى ويا ليت مـا تنفـذ الكور
ولا تخـيّط مـــا يشـقــه ضـــديدك
ولا يـــزيـــح الـــهـــم مـــن داخــل الــزور
مـــادام كف عـــداك قـــاطب وريدك
يا ســـراج وادي النيل وحق العـــرب نور
نهض بعـــزم الله والله ســعـــيـــدك
واطلب لك التـــوفـــيق من خـــالق الحــور
يعـيــد لك بالعـــز وحــقــه يعـيــدك
ويجـــاه من ناجـــاه في قـــمـــة الطور
يجـعل جـمـيع عـداك كلهم عـبـيـدك
واسلم وسلم لي على الشـــعب بســـرور
أولاد وادي النيل جند عـــضـــيـــدك
جند الا من شـــاف للضـــد منشـــور
يشب نـار الحـــرب ويطـرد طـريدك
وباقي العـــرب للنيل درع كـــمـــا الســـور
هـم تـرى يمنـاك والـة عـــــديدك
واطلب لك التـــوفـــيق منين مـــا تدور
كـــسـيك ثوب العـــز بأيام عـــيـــدك
وتحكم على قـــبـــرص وطارق مع الطور
ومنين مـــا يممت يقـــرّب بعـــيـــدك
ويا ليـــتني عندك على البـــاب ناطور
يشـــهـــد علي الله قلبي يريدك
لا شك مـثلي يا فـتى الجـود مـعـذور
عـود كـفـيف لو يجي مـا يفـيـدك (٣٢)

ويتأكد رفض الشاعر فكرة التفاوض مع الأعداء، والدعوة للأخذ بخيار الحرب في قصائد أخرى لا يتسع المجال لذكرها، منها القصيدة التي نظمها في نكسة يونيو عام ١٩٦٧ التي يقول فيها:

لا تفــاوض العـدوان في كـثـر الأعـذار
الضـــد مـــا هو لك شـــفـــوق رحـــوم

ويقول في قصيدة (قل هو الله أحد):

واعلموا كثر المفاوض ما يفيد
ومجلس أمريكا خارب ما به سعد

سادسا: ربط الشأن المحلي بالوضع العام للوطن العربي

يربط الشاعر في بعض قصائده بين الشأن المحلي والعربي لإيمانه بأن العالم العربي حلقات متداخلة لا يمكن بأي حال، فصلها عن بعضها. وعلى هذا الأساس يكون صلاح الجزء مدخلا إلى صلاح الكل، والعكس صحيح. فعلو شأن الأمة مرهون بتبدل حال أبنائها في أرجاء الوطن العربي، وهذا لا يكون إلا بتمثيل السلف الصالح في القيم والمبادئ ومكارم الأخلاق.

ومن الواضح أن تداخل مفهومي الوطنية والقومية في فكر الشاعر زيد الحرب ناجم عن تأثره بالمد القومي آنذاك. وهو ملمح بارز في إبداع الشعراء والأدباء في تلك المرحلة التاريخية التي شهدت سقوط الدولة العثمانية، وقيام الدولة الصهيونية في فلسطين.

يقول في قصيدة «قال الراوي» وهي قصيدة مقطعية خفيفة من بحر المتدارك، ينتقد فيها الشاعر بعض الظاهرات الاجتماعية والسياسية السلبية:

قال الراوي
كل شي حاوي
وانهاره دايم ممليه
احفظ مالك
عن عيالك
ترى العاجل يحفظ شيه (٣٢)
حذره يفشك

واحفظ فشك
عن الحجي والحجية
ثم يقول:
بعض التجار
يطلع عيار
ياكل نيه والمشويه
وبعض التجار
أجواد أخيار
لولو صافي بهير اشتيه (٣٤)
أما الطوّاش
رق حوّاش (٣٥)
يأخذ تعيب البحرية
رحنا اللجنة
فيها تهنا
مثل الحنشل نهيبيه
رحنا الشرطة
طحنا بورطة
هذا وهذا جمبازيه (٣٦)
رحت القاضي
بمره راضي
باق الفترة والقحفية (٣٧)
وعند الحاكم
حذره تشاتم
ياخذ مالك للمالية

ثم ينتقل إلى الحديث عن القنصل البريطاني وهو أصل البلاء ورمز الاستعمار، تدل على ذلك أعماله في تركيا وكوريا وفلسطين. وإن الخلاص منه لا يكون بالتفاوض بل بالحرب، كما فعل قادة المسلمين في العصور الذهبية.

أما القنصل
ألعن عنصل
مخباط أصفر في تركيا

حجيه ليّن
وهو لعيّن
سلّ ياتي شوي شويّه
من قو باسه
كشف راسه
شوفوا شسوا في كوريّا
أمن المشرق
ليما المغرب
يلعب فيهم طمباخية (٣٨)
ومن مد أيده
حقه يريده
قالوا من ربع الشيوعية
يانا بسوّه
شوف شسوّه
نضّب دولة يهودية
حتى يقول:
وعمي وسيدي
بيش يفيدي
الحق يوخذ بالعوجيه (٣٩)
ترى الجمعة
عز وجمعة
وبيت العالي بالجمعية
قاموا الإسلام
بدين قام
مثل الجدران المبنية
ومنه الظاهر
وسيفه شاهر
ابن العباس وابن أمية
وانتوا منهم
وسدّوا عنهم
وكل سيل يتبع واديّه (٤٠)

سابعا: الصورة الشعرية النابضة بالحياة والحركة

وتتجلى القدرة على التصوير في قصيدة جميلة يوثق فيها الشاعر الحرب، الحياة الاقتصادية في الكويت قبل اكتشاف النفط. ويحيط القارئ علما بأهم المهن التي كان يمارسها الكويتيون برا وبحرا بدقة متناهية، تستحيل فيها الأبيات إلى مشاهد فوتوجرافية حية تشد انتباه القارئ إلى درجة المعايشة.

وتشبه غنيمة زيد الحرب هذه الأبيات باللوحة التاريخية التي تصور نضال الشعب الكويتي وصراعه مع الطبيعة القاسية، يقول الشاعر:

حنا هل الديره وحنا لها عيال
وحنا ذراها في الليالي الصعيبه (٤١)
وحنا عليها نكد بسنين الامحال
لي غار عنها الجن واخلي جليبه (٤٢)
ناس تكد الماي وناس بهيّال
وناس على (عشيرج) تجدح بهيبه
وهذا ترى (حدّاق) وهذاك (جمّال)
وهذاك زاروع إعابل شريبه
وراعي الحضور يباري اليم لي سال
يخاف من (لخمة) ذنبها يصيبه

ثم يستعرض الشاعر العناء الذي يكابده البحار، وهو يصارع الأمواج في رحلات شاقة ممتدة على مدار السنة، يقول:

والقيظ كله انجالب الغوص بحبال
مايه جما الزرنيخ وزاده نهيبه
و(الغيص) يشكي الضيم من بحر الأهوال
و(السيب) واجف دوم مثل النصيبه (٤٣)
ورحنا السفر والموج ياكنه جبال
في غبّة فيها المنايا قريبه (٤٤)

ويطرح الشاعر هنا تجربة حقيقية عاشها وهو يخوض غمار المحيطات مع أقرانه الملاحين، مواجهين حياة محفوفة بالمخاطر والأهوال. لذلك جاءت قصيدته صادقة حافلة بالدلالات الموحية، الدالة على أهمية الاتكال على العناصر الوطنية المخلصة في تصريف أمور البلد.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه القصيدة تعدت مسألة توثيق الحياة الاقتصادية في الكويت قبل ظهور النفط إلى نقد الأوضاع في المجتمع الكويتي المعاصر. فالشاعر يخاطب فيها المغفور له الشيخ جابر العلي الصباح نائب رئيس الوزراء ووزير الإعلام آنذاك، ويتوجه إليه بالشكوى من سراق المال العام والمتلاعبين بمقدرات الشعب، ويؤكد له أن أولئك اللصوص هم من أهل البلد وليسوا غرباء، ما يجعل البلاء أعظم، يقول في مطلعها:

يا بو علي بنخاك يا طيّب الفال
حيثك مقر الجود مجده وطيبه
جيتك أنا يا شيخ أشرح لك الحال
من حيث مثلك من عنى له يثيبه
تهنا وضعنا بين سارق وحيال
حتى المؤجّر حقنا بيفدي به
منا وفينا صايب القلب سلال
ما بلادنا من جنود غريبه
وش شوفتك يا شيخ في بعض الانذال
شوك دفن بالطين يابس عسيبه
هم يلعبون اليوم في خزنة المال
ويطالبون الشعب بلقمة غبيبه (٤٥)

ثامنا: رمزية الزمان والمكان

ونقصد بها استخدام الشاعر رموزا دالة على البعد الزمني والمكاني للظاهرة التي يتناولها، ففي قصيدة «فلسطين» يتمثل الشاعر إسرائيل عجوزا شمطاء شديدة الدهاء كما عجوز خيبر.

وترمز العجوز إلى العداء التاريخي الذي يكنه اليهود للمسلمين منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، مما أدى إلى نشوب موقعة خيبر التي دارت بين الطرفين في المدينة المنورة.

فما حدث لفلسطين ليس وليد الساعة، بل هو نتيجة صراع قديم بين العرب واليهود.

أما فلسطين، فهي الشابة الفتية التي يتغزل بها الشاعر ويشتاق لملاقاتها، ويأمل في تخطي الصعاب للاجتماع بها، ولكن دونهما العجوز البغيضة التي تعترض سبيل الشاعر، محاولة إغواءه وإلهاءه عن لقاء حبيبته:

أمس العصر وافيت سيد الرعابيب
يشبه قمر خمسة عشر حدر الأسلاب (٤٦)
ساعة نطحني شب قلبي لواهيب
قلت: الوصل وقال: ذا الحين ما ناب
أصبر الين الشمس حدر الدجى تغيب
واجعل ظلام الليل ستر لك حجاب (٤٧)
واحذر تحدّر من عيون الرواجيب
والواش للفتنة على النار شبّاب (٤٨)
قلت: أي حزّة أجيك فيها بتراتيب
أطق أنا الدفعة لو أشخط لك الباب
قالت لي: أسكت جاتنا وضعة الشيب
وهذي عجوز إبليس وتدور الأسباب
قلت: افزّ عجل في سلام وترحيب
هلبت تخلي السيل يجري مع الساب (٤٩)
قالت: عجوز من عجايز تل أبيب
حدبة ظهر يشيب من شوفها الشاب

ثم ينتقل الحوار الدائر بين الشاعر وحبيبته إلى حوار بينه وبين العجوز التي تحاول عبثا غوايته وإيقاعه في شراك مكرها، وتزين له درب الرذيلة الذي يرفضه بحزم:

قالت: هيا معي لصيد وعندي جلاليب
وكل ماتبي منهم أسحبه بكلاب

قلت: والله مـــالي بالعـــذارى مطاليب

ولاني على ظنك ســـــروق ونهّـــــاب

قـــالت: اترادد من كـبـيـرة خطاطيب

أجـيـبـهم من غـيـر شـرع ولا كـتـاب

قلت: أنت عجوز إبليس صفرا العراجيب

يا الحيّـة الرقطا لا صيـر لك داب (٥٠)

قالت: والله لاقعد لك على الدرب بالهيب

وامــزعك تمزيع في روس الأهيــاب (٥١)

قلت: احط لك جن بوسط المداعـــيب

ولا بد مــا يصيـدك حـداهم بمدعـاب

وهكذا يستمر حوار الاستفزاز والتحدي بين الشاعر والعجوز. وتتضمن الأبيات موصوفات شعبية وكنى شائعة في التراث العربي، مثل تشبيه الأذى بلدغة الأفعى الرقطاء، والاعتقاد بتخفي الجن في الأماكن المظلمة الضيقة كمسالك الصرف الصحي (المداعيب).

وواضح أن الرمز الذي يفتتح الشاعر به قصيدته يستحيل تدريجيا من الإلماح إلى التصريح كلما تابعنا قراءة القصيدة، يقول:

الا كـان القـدس لصيـحـتـه مـجـيب

وشفت اليهود خدام من تحت الاعـراب

قلت: لا بد مـــا يوم نفلّ المناشـــيب

ولا يضــــيع لك دين للدين طلاب

صـبـري يجـولك في سـيوف مـحـاديب

ونرجـو النصـر والعـز من رب الارباب (٥٢)

ويبدو التقابل بين الصور الشعرية واضحا في هذه القصيدة. ويتأسس هذا التقابل بين نقيضين على الصراع بين الجمال والقبح والفرح والحزن والسعادة والألم والبراءة والمكر. وتتولد هذه الصور الشعرية المتضادة في نفس القارئ بصورة مطردة وهو يتابع أبيات القصيدة، ويواكب تطورها الشعوري حتى النهاية. تلك النهاية التي تأتي في الغالب مفعمة بالخيبة والإحباط كما في القصائد القومية الأخرى، لأن أغلبها تعبير عن مشاعر

العجز القومي تجاه أعداء الأمة. ويشكل هذا الملمح زاوية حادة في هذه القصيدة، وكذلك في قصيدة أخرى يرثي بها الشاعر الزعيم الراحل جمال عبدالناصر.

ومعلوم أن فكرة التضاد بين الخير والشر نتاج فلسفات شرقية قديمة ظهر صداها في بعض المؤلفات العربية القديمة (٥٣)، كما ارتكزت عليها بعض النظريات المعنية بدراسة المأثور الشعبي والكشف عن مضامينه الإنسانية (٥٤).

وفي النموذج المذكور ينحو الرمز منحيين أساسيين يشكلان بنية القصيدة، أولهما، الصراع بين الخير والشر الذي بدا في هيئة عجوز ماكرة وشاب نبيل يرفض مناوراتها الدنيئة. وثانيهما تأكيد العداء التاريخي بين العرب واليهود، الذي أدى إلى احتلال فلسطين وقيام دولة إسرائيل.

تاسعا: استلهام الأمثال والتمث بالشخصيات الدينية والتاريخية

تحفل قصائد زيد الحرب بالأمثال والشخصيات التراثية. ولا ترد هذه الاقتباسات في شعره في شكل إشارات عابرة، كما لدى غيره من الشعراء، بل تشغل جزءا أساسيا من نسيج القصيدة وجوهرها الروحي. فالشاعر يوظف التراث للتعبير عن حالة شعورية معينة، يكون فيها الجانب المستلهم وسيلة إلى التنفيس عن تلك الحالة، كما في قصيدة «يا ناس قلبي بين الاضلاع محروق»، التي ينتقد فيها بعض الأوضاع الاجتماعية السيئة، مثل سرقة المال العام وحرمان الغالبية من حقها المشروع في ثروات البلد، ويشبه الكويت بعين عذاري، وهي نبع مشهور في البحرين، ورد ذكرها في المثل القائل: (عين عذاري تسقي البعيد وتخلي الجريب)، يقول:

يا غيمة جتنا بها رعود وبروق

تمطر ولا شفنا على الأرض ماها

تسـقي بعيـد الفـرس وتسـيح بعـروق

تذكـر (عذاري) مـا سقت من حـداها(٥٥)

ويشير الشاعـر في القصيدة نفسـها إلى نمط من الألغـاز الشـعـرية المعـروفـة في التـراث الكويتي وهو «الدرسـعي». ويستـغله للتـعبيـر عن أمله في أن يفـهم المسؤولون معنى قصيدته التي فسرت اللغز، ويعملوا على إصلاح الأمور.

هذا جـواب اللغـز بإعـلان مطقـوق

ويفـهم حـروف الدرسـعي من قـراها

ويضمن الشاعـر قصائده أمثالا أخرى للغاية الوظيفية نفسها، يقول في قصيدة نظمها بمناسبة تأميم شركات النفط في إيران عام ١٩٥١:

طاح الجـمل والشـيل من غـاريه مـال

كـثـروا سكاكين اللحم للبـعـيـر(٥٦)

وهو ينوه بالمثل القـائل: «لي طاح الجـمل كـثـرت سكاكينه»

ولا يكتفي الشاعـر بإيراد الأمثال العامية، بل يطوع مقولات مصوغة بالفصحى لخدمة المعنى المقصود.

يقول في قصيدة للرد على ادعاءات عبدالكريم قاسم بضم الكويت:

هذا الفـخـر إن كنت غـوج تقـادي

مـا هي دعـايات وحـبـر في جـريدة(٥٧)

وهو يستلهم المقولة الشائعة «حبر على ورق»، وتعني كلاما غير قابل للتطبيق.

أما الشخصيات الدينية، فقد اتخذها الشاعر مثلا يحتذى في الصبر والاحتمال والشجاعة في مواجهة الصعاب، يقول في قصيدة «صبرت صبر أيوب»:

صـبـرت صـبـر أيوب ويوسف وذا النون

مـيـر الصـبـر للقلب يا ناس مـا ثاب

ويقول في القصيدة نفسها:

وعنده مـحـامي يا فـتى الجـود ملعـون

فـرعـون مع هيـمـان كلهم ترى كـلاب

وكلهم ترى عـــدوان مـــوسى وهارون

والله لعن لثنين في دين وكــتـــاب[٥٨]

وتبقى بعض القصائد التي دلت بوضوح على تأرجح فكر الشاعر تبعا للظروف التي يمر بها، منها قصيدته التي يؤكد فيها قناعته وعدم حبه للمال، والتي تناقض أبياتا أخرى يقر فيها بأهمية المال وسيلة إلى نيل العز والسؤدد. وربما كان لظهور النفط وتغير أسلوب العيش في الكويت أثره في نفس الشاعر، ما أدى إلى تغير ملموس في بعض آرائه. فبينما يقول في إحدى قصائده المعنونة «شوفوا العرب»:

مـــا همني المال يا ناس لو زاد

الخـــيـــر عند الله والأرزاق وايد

همّي أنا يا ناس من ضــد الأضــداد

ولا هم إلا هم غبن الضــــدايد

شوفوا العرب ما بين الأشجار بالداد

كيف اليهود يطشرون البدايد[٥٩]

أمّـــا صــدمناهم على الخيل بطراد

ليما نسيد اللي على القدس سايد

يحـــرم علينا النوم والشــرب والزاد

ويحـــرم علينا هدوم لبس جــدايد[٦٠]

وأن مـــا فـــعلنا وا عــســـانا لا نفـــاد

وخلوا الحكم اللابســـات القـــلايد[٦١]

بيض تكيـــد بكيـــدها كل من كـــاد

حـــسن من رجـــال بليّـــا فـــوايد

ويقول في الثانية:

إن كـــان عندك مـــال يصيـــر لك كـــار

لونك ســواد الليل قـــالوا قـــمــرها[٦٢]

وإن كـــان مـــا تملك من المال دينار

أخـــيـــر بطن الأرض لك من ظهـــرها

ترى حـــيـــاة الذل ترث لك العـــار

ومـــوتك على عـــز يرفع قـــدرها[٦٣]

ويبدو أن التغير الذي طرأ على رأي الشاعر مرهون بالموضوع الذي يتحدث عنه والظرف النفسي الذي يمر به. ففي الأبيات الأولى يتحدث عن قضية فلسطين التي يهون في سبيلها المال. أما الثانية فيتناول فيها ظاهرة عامة في المجتمع، وهي أن قيمة الإنسان أصبحت تقاس بمقدار ثرائه.

ولا نعتقد أننا غطينا في هذه العجالة، مجمل القصائد التي أبدعتها ريشة الفنان زيد الحرب، ولا نظن أن دارسا واحدا قادر على استدعاء ذخيرة من اللوحات الفنية التي رسمها زيد الحرب بمداد قلبه النابض بصور العيش الأمثل، عبر سنين طويلة، ولكننا اجتهدنا، قدر المستطاع، في استيفاء القصائد التي ترشدنا إلى النهج العام في تجربته الشعرية الفريدة.

شعر زيد الحرب: البناء والتراكيب

أولا: القصيدة العمودية

تخضع القصيدة العمودية لدى زيد الحرب لشكلين فنيين أولهما: القافية المزدوجة أو المتواترة. وهي نظام شائع في الشعر الشعبي والعامي في الكويت ومنطقة الخليج العربي لملاءمتها الغناء. ومعروف أن الغناء الشعبي في أغلبه، أداء تكاملي تشترك فيه المجموعة مع الفنان في الأداء. والقافية المزدوجة عامل مساعد على الترديد وتبادل الأدوار بين المغني والكورس. ومن القصائد التي نظمها الشاعر على هذا النسق «القادسية مقدسة»، التي يتذمر فيها من تأخر وصول التيار الكهربائي إلى هذه المنطقة من مناطق الكويت:

القادسية مقدّسه
والكهربا فيها حرام
صار الضوا للمدرسه
واحنا مع المسجد ظلام
الشيخ والله ما نسى
مير السبب ولد الحرام
هو يدعي بالهندسة
لا شك ما يمشي تمام(٦٤)

ولا يقتصر هذا الشكل الصياغي على القصائد ذوات الأوزان الخفيفة، بل يتعدى ذلك إلى أوزان شعرية أخرى كما في قصيدة «ثوروا على الدنيا». يقول:

ثوروا على الدنيـــا بني عم واخـــوان

والا ترى الضـد مـــا تقـــدرونه

هذا اليهـودي إن كان هو بالعهـد خـان

مـعـريه حـد السـيف صـقـه قـرونه

مـثل البـغل هو يدعي خـاله حـصـان

وينسى أبوه حـمـيـر يركـبـونه(٦٥)

وثانيهما: التزام الشاعر بشكل القصيدة التقليدية في إيراد قافية موحدة في عجز الأبيات كما في قصيدته «الكويت ربتنا وفيها ربينا»، يقول فيها مشيدا بفضل وطنه الكويت الذي يكن له عميق الحب والولاء:

الكويت ربتنا وفـيـهـــا ربينا

هي أمنا واحنا ترانا عـيـالهـــا

ودار ربـتـنـا وريـت جـــدودنا

والكل منـا رابي في ظـلالهـــا

دار تـدلـلـنـا عـلـى كل حـــزّه

أهـي تـدلـلـنـا وحـنـا دلالهـــا

دار كـســتنا العـز وثوب الجـمـايل

هل كـيف ننسـاها وننسى جـمـالهـا

والـلـه لـو دوّرت بـالـشـــرق كـلـه

ودرت الجنوب وغـربهـا مع شـمـالهـا

حـــرام مـا تلقى بالأوطان مـثلهـا

ولا يعـوضك بالبـلادين بدالهـا(٦٦)

ويستطرد الشاعر معددا أفضال الكويت التي جاوزت القريب إلى الغريب المطرود من بلده، والذي أخنى عليه الدهر فوجد في الكويت الوطن البديل والملاذ الآمن، ثم يشيد بدور آل الصباح في الدفاع عن الكويت وحمايتها من الأعداء الطامعين فيها:

مـــزيان للمطرود واللي مـجـلا

ومن صكتـه سـود الليـالي عنى لهـا

دار السـعـد والجـود والمجـد والكرم

على العـرب تمطر سـحـايب حـلالهـا

دار الصــبــاح اللي بعــزم حـــمــوهـا
عـــدوهـا لا تظن بيـــده ينـالهـــا
جـــد راودوها الروم والتــرك والعــجم
وأولاد ســالم أوقــفـوا دون جـالهـــا
بـر ويحـــر بـالبنـادق حـــمـــوهـا
خاضوا المعارك ما خشوا من اهوالها(٦٧)

ثانيا: النظام المقطعي

وهو قالب فني معروف في الشعر الشعبي. ويصوغ فيه الشاعر قصيدته على هيئة مقطوعات، يحل فيها الشطر محل البيت في كونه الوحدة العضوية للقصيدة.

ويرتكز بناء القصيدة المقطعية لدى زيد الحرب على نموذجين فنيين:

١- نموذج رباعي، يقوم على إيراد أربعة أشطر تتفق فيها قافية الأشطر الثلاثة الأولى، ويأتي الشطر الرابع مستقلا بقافيته ووزنه. ويردف الشاعر هذه المقطوعة بمقطوعات أخرى على النسق نفسه، ولكن بقافية مختلفة في الأشطر الثلاثة الأولى. بينما تتحدد قافية الشطر الرابع على امتداد القصيدة، وتكون بمنزلة قفل يتكرر في خواتم المقطوعات.

وتتفق هذه التركيبة الفنية مع أشكال الشعر الشعبي المعروفة في التراث العربي وبالأخص شعر الموال. ومعلوم أن الموال شاع في العصر العباسي وانتشر في أرجاء الوطن العربي، وتفنن الشعراء في أشكال نظمه، فظهر منه الشكل الرباعي بألوانه البنائية والخماسي والسداسي والسباعي. وبالغ بعض الشعراء في إيراد أشطر تجاوزت المئات، وهو اللون الذي اصطلح عليه بالموال القصصي أو البالاد(٦٨).

ومن أشهر القصائد الرباعية للشاعر زيد الحرب قصيدة «عسر الدهر»التي استشهدنا بها في معرض حديثنا عن ملامح شعره. ونرجح أن يكون الشاعر قد

استوحاها من التراث الغنائي البحري. ولذلك صاغها على هيئة مقطوعات رباعية تنسجم مع موضوع القصيدة، الذي يتناول الخلاف الدائر بين أصحاب السفن والبحارة حول دفع مخصصاتهم.

ونستشهد بمقاطع من قصيدة أخرى صاغها على النظام نفسه مع اختلاف الوزن وهي قصيدة «الوطن أول وتالي»، إحدى قصائد الشاعر الوطنية، يقول فيها:

الــــوطــــن أول وتـــالـــي
نشـــتـــريه بكل غـــالي
نبـــغي المرقب العـــالي
ونجـــمع الراي الرشـــيـــد
الوطن زينه اطبـــاعـــه
محـــد من الشـــعب باعـــه
كـلـنـا بمـر وطـاعـــه
بخـدمـتـه نمشي عـبـيـد[٦٩]

٢- نموذج ثلاثي تتفق فيه قافية الشطرين الأولى والثانية، وتتفرد الثالثة بقافيتها ووزنها، كما في قصيدة الشاعر الساخرة «قال الراوي» التي أوردنا نصها في معرض الحديث عن سمات شعره. والملاحظ أن زيد الحرب لم ينظم قصيدة أخرى على هذا المنوال فيما ورد في الديوان.

خلاصة

بعد هذه الرحلة الشيقة في ثنايا فكر الشاعر زيد الحرب وتضاعيف شعره، نخلص إلى ما يلي:

أولا: زيد الحرب شاعر شعبي بكل ما تحمله الكلمة من معنى. لا لأنه اختار العامية وعاء لصب أفكاره، بل لأنه عزف على وتر الوجدان الجمعي بمقدرة نادرة لم يضاهها شاعر آخر سواء على الصعيد المحلي أو القومي. ولهذا السبب ذاع شعره بين أبناء مجتمعه ممن وجدوا فيه مرآة عاكسة لمشاكلهم اليومية، جاوز فيها الشاعر الطرح

المجرد لتلك المشاكل إلى إبداء الرأي واقتراح سبل التقويم والمعالجة.

الشاعر زيد الحرب وظف إبداعه الشعري لغايات تسامت كثيرا على المنفعة الذاتية، فلم نسمع في شعره إلا توق الشعب إلى حياة أفضل. وهذا ملمح آخر من ملامح الإبداع الشعبي، يصبح فيه الإبداع صوت الناس المسموع، ورسالتهم إلى ضمائر الحكام. ناهيك عن تميز شعر زيد الحرب بالصدق والتلقائية، وهما سمتان غالبتان على الشعر الشعبي.

ولا تفوتنا الإشارة إلى خصيصة الشفاهية، وهي علامة بارزة في المأثور الشعبي. فالفنان في مرحلة ما قبل التدوين، كان يتداول عصارة أفكاره بالنقل الشفهي. ولم تنل الكتابة التي ظهرت فيما بعد، من هذه الظاهرة التي استمرت قوة كامنة توجه المأثور الشعبي نحو غاياته المنشودة. ولم يؤثر فيها اتجاه بعض الفنانين أو بعض أقربائهم إلى تدوين مؤلفاتهم على سبيل الحفظ والتوثيق. فإبداعهم انتشر أصلا بالنقل الشفهي.

ومعلوم أن قصائد زيد الحرب شاعت بين الناس إنشادا وغناء قبل صدور ديوانه بسنوات طويلة. واعترفت فيه ابنته التي تعهدت بإصداره، بضياع كم كبير من شعره.

ثانيا: زيد الحرب روح شفافة جالت مسالك الحياة ودروب الزمن لتنثر عبق الحب والسلام، وترسم صورة العيش الأمثل. وهذه الروح الهائمة نجحت في تحقيق أمنيات ونبوءات أسعدت صاحبها حينا وأرقته أحيانا بخوفه عليها من التداعي والانهيار.

وليس أدل على ذلك من تنبئه بالثورتين المصرية عام ١٩٥٢ والعراقية عام ١٩٥٨.

تقول غنيمة زيد الحرب في الديوان: وكان الشاعر، إلى جانب وعيه السياسي والقومي، يتمتع بنوع من الحدس السياسي، يتمثل في التنبؤ ببعض الأحداث السياسية في بلد معين، مستشهدا بما يحدث في بلد آخر في ظروف مشابهة.

فقد تنبأ بالثورة المصرية التي حدثت في ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، وكان هذا في عام ١٩٥١ عندما أمم رئيس وزراء إيران في ذلك الوقت شركات النفط الأجنبية في إيران:

إن كان في مصر صناديد ورجال
ما صار في (طهران) فيها بصير
وإن عاش له (النحاس) وزانت الأحوال
ما عاد له بالشرق مفرش حصير
واذنابه الخوان كنازة المال
لا بد ما يرغون عقب الهدير
طاح الجمل والشيل من غاريه مال
كثروا سكاكين اللحم للبعير[٧٠]

وتضيف قائلة: وقد لا يكون التنبؤ بالثورة حدثا غريبا في حد ذاته، ولكنه يكون كذلك عندما يحدد الشاعر شهر يوليو موعدا لقيام الثورة العراقية التي حدثت في ١٤ يوليو عام ١٩٥٨.

والشاهد على ما نقول الأبيات الأولى من قصيدة قالها الشاعر إثر أحداث الحرب الأهلية في لبنان في ذلك الوقت:

لا شك فيهم ذل مما يخافون
خوف تثور شعوبهم سر وجهار
وهذا صحيح العلم لازم يثورون
ما يلبسون الذل فروخ الأحرار
أما بشهر (آب) والا بتموز
يجيك من (بغداد) تفصيل الأخبار
أصبر قليل شوي وفيهم تشوفون
ما صار في لبنان بيعم الأقطار
ولا بد ما يوم به الحرب بيكون
بين العرب والغرب بتشتعل نار...[٧١]

ثالثا: لا يختلف بناء القصيدة لدى زيد الحرب عن غيره من أنواع الشعر الشعبي المعروفة في البيئات العربية. فهو إما أن يلتزم بشكل القصيدة العمودية ذات

القافية الواحدة أو المزدوجة، أو يصاغ على نسق المقطوعات متعددة القوافي.

رابعا: تخضع قصائد زيد الحرب لأوزان الشعر العربي، كما تجمعها أوجه شبه مع أوزان استخرجها بعض دارسي الشعر النبطي وعدوها بحورا خاصة به(٧٢).

وتجدر الإشارة إلى أن بحر البسيط من البحور التي استهوت شعراء العامية، فصاغوا عليه أغلب أشعارهم، مع الأخذ بعين الاعتبار الاختلافات اللهجية بين مناطق الوطن العربي، وتأثر الشاعر بالظواهر اللغوية الخاصة بلهجته كقلب الحروف والإبدال والمد والإدغام، بالإضافة إلى بعض السمات ذات الصلة بمخارج الحروف التي تسوغ للشاعر إيجاد التقارب الصوتي بين قوافي القصيدة. وتبدو هذه السمات اللغوية أكثر وضوحا لدى سكان الخليج العربي.

والملاحظ أن هذه الظواهر التي ميزت لهجات الخليج لم تحل بين الشاعر وأدواته الإبداعية بل على عكس ذلك، أمدته بمعين لا ينضب من المفردات والتعابير التي أعانته كثيرا، وأثرت تجربته الشعرية ليحقق الغاية التي ينشدها.

ويبدو ذلك واضحا في شعر زيد الحرب. فعلى الرغم من تنوع بحور الشعر لديه بين البسيط والمتدارك والرمل مع مراعاة ما يطرأ على هذه البحور من علل ناجمة عن طبيعة اللهجة المحلية، فإن الشاعر نجح كثيرا في تطويع هذه الملامح اللغوية في التعبير عن آرائه وأفكاره بحرية شديدة. ولا نغفل ظاهرة اللحن التي يلجأ إليها الشاعر أحيانا للضرورة الشعرية، وهي ملمح بارز في الشعر الشعبي.

ومما يسترعي الانتباه، وجود نماذج من أوزان الشعر النبطي مندسة بين طيات قصائد زيد الحرب. وهذا يدحض زعم بعض الدارسين أن الشعر النبطي ظاهرة مستقلة عن الشعر الشعبي، وهم يرتكزون في دعواهم على طبيعة لهجته البدوية وبحوره المستقلة من جهة، وعلى كونه سجلا حافلا بالوقائع والمعارك التي دارت بين

القبائل. وسوف نناقش هذه المقولات بعد استعراض نماذج من شعر زيد الحرب تتماثل مع أوزان الشعر النبطي، منها قوله:

يا غيمة جتنا بها رعود وبروق
تمطر ولا شفنا على الأرض ماها

يشبه البيت المنسوب إلى أحد شعراء النبط:

يقول الخلاوي حاضر الراي صاييه
مصاب الحشا ما دهي بادها مصاييه[٧٣]

وهو من بحر الهلالي.

وقوله:

الكويت ريّتنا وفيها ربينا
هي أمنا واحنا ترانا عيالها

جاء قريب الشبه بالبيت القائل:

نفسي تمنيني لرقي السنودي
مع لايتن على الزعلان والخد ممدود[٧٤]

وهو من بحر المسحوب.

وفي قوله في الفنانة عودة المهنا:

عودة المهنا تشيل فنون
وتواجب الصوت بالطاره
بن حرب في كاظمة مسجون
عند الكفر ضاعت أفكاره

يشبه في الوزن بحر الهجيني:

ياحمود أنا عارضي شابي
طرد الهوى جزت أنا منه[٧٥]

ولعل هذا التشابه بين أوزان الشعر النبطي والشعبي يقنع البعض بعدم جدوى التمييز بين أنماط الشعر الشعبي،مما تتوافر فيه الشروط المطلوبة لهذا اللون من النشاط الإنساني[٧٦].

ومن هذا المنطلق نود التنويه ببعض الحقائق التي تمد جسور التواصل بين الاثنين وتجمعهما تحت مظلة واحدة:

أولاها: إن العلاقة الحميمة بين الشعر الشعبي والغناء، طوعت أوزانه لملاءمة الألحان، وهذا يدفعنا إلى

تأكيد أهمية الظواهر اللغوية التي تحدث وقد أشرنا إليها آنفا كالمد والإدغام والقصر، والتي تطرأ على النص لملء الفترة الزمنية التي يستغرقها اللحن. وهذه الظاهرة الواضحة في الشعر الشعبي، ربما أوحت إلى البعض بوجود بحور خاصة بالشعر النبطي.

ثانيها: إن أوزان الشعر العربي سواء الفصيح منه أو العامي، مستمدة من طبيعة اللغة العربية وخصوصية تراكيبها. فاللغة العربية لغة مقطعية يتراوح فيها المقطع بين الطول والقصر.

وعلى أساس هذه الطبيعة المتفردة صاغ علماء العرب نظرياتهم العروضية. بالإضافة إلى دراستهم الشعر العربي الذي نشأ في مراحل متقدمة جدا على ظهور تلك النظريات.

وهذا دليل ساطع على أن أوزان الشعر العربي مهما اعتراها من عيوب اللغة أو اللهجة، فإن قواعدها الأساسية تبقى ثابتة تدور في فلكها كل أشكال النظم.

ثالثها: لا تصلح لغة القصيدة أو أغراضها أو ألوانها العروضية معايير للحكم على مدى شعبيتها أو النظر إليها على أنها نوع مستقل من الشعر. لأن هنالك خصائص متعارفا عليها بين دارسي المأثور الشعبي، للتمييز بينه وبين أنماط الإبداع الأخرى أشرنا إليها آنفا. كما أن موضوعات القصيدة النبطية لم تخرج عن دائرة الموضوعات التي استرعت اهتمام الشاعر العربي منذ القدم، مع ملاحظة التغير الذي يعتريها بتغير الزمان والمكان. ونرجح أن تكون هذه المظاهر حافزا مشجعا على عقد دراسات مقارنة بين الشعر الجاهلي والشعر النبطي، بعضها باللغة العربية والبعض الآخر بلغات أجنبية، استرشد فيها الباحثون ببعض نظريات الفولكلور المعاصرة(٧٧).

هوامش

1 حصة الرفاعي، أغاني البحر في الكويت: دراسة فولكلورية، الكويت: ١٩٨٥، ص٩٨.

2 غنيمة زيد الحرب، ديوان زيد الحرب، الكويت: ١٩٧٨، ص١٩٥.

3 الديوان ص١٤.

4 الديوان ص٢٤.

5 أغاني البحر، ص١٤٣.

6 أمهات أم خمس: البنادق.

7 الديوان، ص١٥٠.

8 أغاني البحر، ص١٧٥-٢٤٥.

9 شابح زنودي: مقيّد يديّ.

10 زلّ: حلّ، سقمونا: دفعوا أجورنا، والتسقام: مقدم سلف يدفعه التاجر للبحار قبل رحلة السفر التجاري.

11 خمسة أهلة: خمسة شهور.

12 البنابيس: العبيد.

13 نهايب: عرضة للسرقة.

14 عبدالله العتيبي، دراسات في الشعر الشعبي الكويتي، الكويت: ١٩٨٤، ص١٨.

15 هج: غادر.

16 العيس: الإبل.

17 الديوان، ص٧٦.

18 حصة الرفاعي، الفولكلور وقضية المصطلح، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ١٩٩٧:٦٠، ص٢٤.

19 الديوان: ص١٦.

20 المرجع نفسه: ص٢٨-٢٩.
21 الصاع: وحدة وزن.
22 شين: سيئ.
23 الديوان ص١٥٤.
24 حصة الرفاعي، الفولكلور والعلوم الإنسانية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ٤٦: ١٩٩٤، ص٢٩.
25 نركد (بالكاف الفارسية): ننام.
26 الزل: السجاد.
27 الديوان، ص٩٧.
28 نومس: استبد.
29 ترس: ملأ.
30 الديوان ص١١٤.
31 يقضب: يمسك.
32 عود: كبير السن، الديوان، ص١٣٧.
33 العاجل: العاقل.
34 هير: مغاص.
35 الطوّاش: تاجر اللؤلؤ.
36 جمبازية: مخادعون.
37 باق: سرق.
38 طمباخية: كرة.
39 العوجية: العصا الغليظة.
40 الديوان، ص١٥٧.
41 ذراها - ظلها.
42 نكد: نسعى في طلب الرزق.
43 الغيص: الغواص، السيب: مساعد الغواص.
44 الديوان، ص١٨-١٩.

45 الغبيبة: الطعام البائت، ورد نص القصيدة كاملا ص٧٠ من الديوان.

46 الرعابيب: الملاح، حدر: تحت.

47 الين: حتى.

48 الرواجيب: الحسّاد، الواش، النمام ٣٠ – الديوان، ص٩٢.

49 هلبت: يمكن.

50 العراجيب: الخداع.

51 الهيب: القضيب.

52 الديوان: ١٠٩.

53 أشار عمر الدقاق إلى تأثر عبدالله بن المقفع بهذه الفلسفة نتيجة ترجمته حكايات كليلة ودمنة عن الفارسية. وهي ذات أصل هندي، عمر الدقاق، ملامح النثر العباسي، بيروت، لم تذكر سنة طبع، ص١١٠-١١١.

54 الفولكلور والعلوم الإنسانية، ص٤٦.

55 الديوان، ص٩٣.

56 الديوان، ص٣٩.

57 الديوان، ص٥٨.

58 الديوان، ص٩٥.

59 يطشرون: ينثرون.

60 لابسات القلايد: النساء.

61 الديوان: ٣١.

62 كار: شأن.

63 الديوان، ص١٩٧.

64 الديوان، ص٩١.

65 الديوان، ص٢٥.

66 الديوان، البلادين: البلدان.

67 الديوان، ص٥٣.

68 أغاني البحر في الكويت، ص١٧٥-١٨٥.

69 الديوان، ص٤٧.

70 الديوان، ص٣٩.

71 الديوان، ص٤٠.

72 راجع كتاب طلال السعيد، الشعر النبطي، أصله، تطور فنونه وأوزانه، الكويت: ١٩٨١، ص٢٦-٥٣.

73 المصدر نفسه.

74 المصدر نفسه.

75 المصدر نفسه.

76 المصدر نفسه، ص١٢٤.

77 راجع: عبدالله بن خميس، الشعر النبطي امتداد للشعر الفصيح، بحث مقدم في مؤتمر الأدباء السعوديين الأول، مكة المكرمة: ١٩٧٤، ج٢، ص٦٧٧-٦٩٦.

وأيضا:

M. Zwettler. The Oral Tradition of Classical Arabic Poetry: its Character And Implications. Ohio State University Press: 1975.

تعقيب د. صباح السويفان
على منارة
الأستاذ زيد الحرب

التعقيب على المنارة

د. صباح السويفان (*)

شاعرنا شاعر عظيم له باع طويلة في الثقافة الشعبية الكويتية والوطنية، والتاريخية، وله فضل على أهل الكويت، فهو الشاعر المولود في منطقة شرق بالكويت عام ١٨٨٧م، زيد بن عبدالله بن إبراهيم الحرب.

وباحثتنا الدكتورة صاحبة الباع الكبيرة في الدراسات الشعبية، فكأنه قد «وافق شن طبقه». وقد أظهرت لنا باحثتنا الأكاديمية المبدعة في شعر شاعرنا معاني سامية، ومعلومات ثرية، وإحساسا مرهفا تأثرا بالجو المحيط به.

تقول الشاعرة غنيمة زيد الحرب إن والدها الشاعر زيد الحرب بدأ في كتابة الشعر منذ فترة المراهقة في السادسة عشرة من عمره وكان أغلب شعره في ذلك الوقت شعرا غزليا، إلا أنه مع مرور السنين كبر وكبرت القضايا التي بات يتنبه إليها ليعالجها في شعره، خاصة أن أدواته الإبداعية بدأت تنضج تزامنا مع أفكاره التي نضجت بسرعة لطبيعة الحياة والظروف التي كان يعيشها.

وقد أظهرت لنا الدكتورة حصة الرفاعي جوانب من حياته وشعره، وأتحفتنا بقصائد ونماذج من شعره الشعبي والفصيح، إذ يعتبر الشاعر زيد الحرب أحد أهم شعراء العامية في الكويت نظرا إلى مواقفه الإنسانية والاجتماعية التي ترجمها شعرا فاستحق بذلك المكانة التي تقلدها، وقد عاش الشاعر خمسا وثمانين سنة أثراها بأحاسيسه، وعاشها بوجدانه، مخلفا وراءه ديوانه الشعري الذي جمعته ابنته البارة غنيمة.

(*) من مواليد الكويت عام ١٩٥٩.

- حاصل على الدكتوراه في الفلسفة في تخصص الأدب المقارن والعالمي - النظرية النقدية الحديثة من جامعة ألبرتا - كندا، يناير ٢٠٠١.

- عضو هيئة تدريس في قسم اللغة العربية في كلية الآداب، جامعة الكويت.

ومن العبر التي نأخذها من شاعرنا هذا، أنه كان أميا لكنه علم الذين يقرؤون ويكتبون، فقد عمل بالصيد والتجارة، وفقد بصره في مرحلة من عمره، لكن بصيرته النافذة ظلت ترى ما وراء الحجب. فجمع القديم والمعاصر حيث ربط عداوة اليهود التاريخية منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم بما يحدث في فلسطين.

وربط المحلي بالعالمي فمدح عبدالناصر، وعاش قضايا الأمة العربية، كما دعا له بالنصر والسيادة على جزيرة قبرص ومضيق جبل طارق وطور سيناء، حيث إنه بذلك يحكم مداخل قناة السويس.

وكان يأمل في وحدة العرب ويرد على من يريد إدخال العداوة بينهم.

ولا يترك قضاياه المحلية، فتراه يرد على عبدالكريم قاسم في زعمه بالحق التاريخي للعراق في الكويت.

ويعبر عن هموم الشعب الفلسطيني ومقاومته للاحتلال، وقد أنشد في ذلك القصائد معبرا عن إحساس المسلم الغيور على وطنه، ويظهر إيمانه العميق بوحدانية الله في قصيدته «قل هو الله أحد» وذكره للتوحيد والجهاد بدافع إيماني.

وقد أفاضت الدكتورة في بحثها القيم «زيد الحرب الفنان الإنسان» ذاكرة ملخصا لحياته، وكيف أنه جاهد قوى الظلم ومواطن الفساد التي أودت بمجد العرب، وأنه برغم أميته فإن إبداعه الشعري يدل على فطنة وذكاء، وقد ذكرت لنا الدكتورة من شعره النماذج الكافية.

وذكرت من معاني شعر زيد أنه كان لسان حال الأمة والمجتمع، وتستدل على معايشته لمجتمعه بقصيدته «عسر الدهر» التي نظمها عام كساد تجارة اللؤلؤ سنة ١٩٢٩م مصورا حال البحارة والتجارة.

ومخاطبته أمير البلاد للاستعانة بالعمالة الوطنية لما يتوافر لها من إخلاص لا يتوافر لدى الأجنبي.

وبذلك نرى اكتساب شعر زيد الحرب أهمية التعبير عن وجدان أمته ومجتمعه. ولا تفوتنا نظرة د. حصة إلى

فلسفة الحياة عند الشاعر ومزجه بين الأنا والنحن، بين الضمير الفردي والجمعي، وعمق معانيه، ولفتتها الذكية إلى رمزية الزمان والمكان في شعره.

وقد كتب الشاعر زيد الحرب مجموعة كبيرة من القصائد التي تناقش كل أغراض الشعر بدءا بالشعر الغزلي ومرورا بالرثاء وبالهجاء وبالشكوى وبالحماسة وانتهاء بالقصائد الوطنية والقومية. ويصنف الشاعر زيد الحرب كشاعر شعبي نبطي، ولا يمكن اعتبار ذلك نقطة ضعف لأن فهم الشعر المكتوب باللغة العربية الفصحى في ذلك الوقت كان محدودا أو شبه معدوم، علما أن الحرف العامي بإمكانه أن يمارس عملية بث الوعي وأن يحقق عملية التثقيف، خاصة أن الشاعر في ذلك الوقت يعتبر بمنزلة وزارة الإعلام أو اللسان الناطق المعبر عن آمال المجتمع وآلامه، كما أن شعر الشعراء، ومنهم شاعرنا، يسجل بعض الأحداث القومية والوطنية ويوثقها، إضافة إلى طرح أحداث المجالين الاجتماعي والسياسي. ولم ينس شاعرنا البحار/ النوخذة أن يتنفس برئة البحارة الذين كانوا يعانون الجوع والظمأ في البحر.

ولم تكن قصائده سطحية ولكننا وجدناه يستخدم الرمز في شعره، وكأنه شاعر حداثي مثقف يعي عملية الترميز ويبث الدهشة لدى المتلقي ويبتعد عن المباشرة والتقريرية، وقد احتوت قصيدته على ثلاث شخصيات هي: الفتاة التي ترمز إلى فلسطين، والعجوز: التي ترمز إلى إسرائيل، وأخيرا شخصية الشاعر المحب وهو يمثل الإنسان العربي المصر على استعادة حقه المغتصب، ويرفض الصلح مع إسرائيل، ويصور شاعرنا محاولات العجوز وإغراءه، وهو يرفض ذلك فيقول:

قالت: تعال بذل واعمل معي طيب

واصير أنا وياك صدقان واصحاب

قلت: أنت عجوز «خيبر» امنين لك طيب

واحنا مع خيبر في جهاد واحراب

تبسمت تضحك وقالت لي ظك مصيب

ميـر، خذنا القرايا ثم غدينا بالاسلاب

قلت: اصبري نعيد كرة تلاييب

ريعي ضواري ما يتلقون بكلاب

قالت: نعم، اسباع بليا مخالب

ليوث مير حلوجهم ما بها انياب

ولأن العرب يحبون الكلمة .. ويتأثرون بها لما تحمله من سحر وبيان وجمال ... فإن الشعراء يحرصون على الإبداع في الغزل ومنهم شاعرنا الذي يتغزل بمحبوبته التي شبهها ببراق الغيوم إذ يقول:

يا علي ما شفت براق الغيوم

واضح الخدين في دوج الظلام

بو ثليل فوق متنينه ردوم

والنهود اللي كما بيض الحمام

والخشم كالسيف قصاص الحزوم

سله الهندي فصام العظام

ذا خليلي ما هقا عني يشوم

ولو وقفوا للترف في عسكر نظام

يا علي كنه علينا يبزوم

ما عرفنا يا علي شنهوا المرام

كان صيده يا علي عز يدوم

من لجا بحماي ما والله يضام

كان صيده يا علي ستر الهدوم

ضافي ستره على كل الأنام

كان صيده يا علي يصلي ويصوم

تايب لله عن درب الحرام

لي قصد للدين لازم له أقوم

يتبع ما قول وأنا له امام

يا علي قله اعلمني لزوم

لا يخلف العلم بالهرج التمام

ويعبر عن وجدانه المتدفق بالحب نحو حبيبته الجميلة التي وصفها وصفا جميلا يعكس هيامه بها، وقد كتب

قصيدته في محبوبته على منوال «فن النجدي» وهو وزن خاص بالشعر العامي إذ يقول:

يعقوب قلبي مزعه سحاب الاردان	**ظبي النفـــــودي**
ابو نهود بالحشا تفاح بستان	**بيج ســــــدودي**
له غره وأن شعشعت قلت القمر بان	**يزهى العـــقـــودي**

وها هو ابن خلدون يقول:

«ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة. وفيهم الفحول والمتأخرون، والكثير من المنتحلين للعلوم في هذا العهد، وخصوصا علم اللسان يستنكر هذه الفنون التي لهم إذا سمعها، ويمج نظمهم إذا أنشد، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانه وفقدان الإعراب منها، وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم، فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليما من الآفات في فطرته ونظره ... إلخ».

(انظر المقدمة ص ١٣١٦ تحقيق علي عبد الواحد وافي)

توفي الشاعر زيد الحرب في ٢٥ فبراير ١٩٧٢ عن عمر يناهز خمسة وثمانين عاما قضاها بالكفاح في الحياة، وكان من دعاة الإصلاح من خلال شعره الذي يتنفس برئة الشعب محاكيا تطور مجتمعه، فرحمه الله رحمة واسعة وبارك في ذريته.

زيد الحرب...

الشاعر والإنسان

غنيمة زيد الحرب

زيد الحرب... الشاعر والإنسان

غنيمة زيد الحرب

عبق من عهد بعيد، أخذ يتجدد في أفق النفس حينما كلفني المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالمساهمة في الكتاب المعنون بـ «منارة زيد الحرب والعزف على أوتار الأمة»، الذي تفضلت بكتابته الدكتورة الباحثة حصة الرفاعي، فأعطته من الجهد والتركيز الشيء الكثير.

وعلى الرغم من سعادتي بتكليفي بهذه المهمة، فإنني شعرت بثقل المسؤولية نظرا إلى كون هذا الرجل .. أبي، وهذا أمر قد يؤدي إلى تقليص مصداقية حكمي عليه في نظر القارئ، وفي الوقت ذاته - ولكونه أبي أيضا - فأنا أعرفه أكثر من غيري، ما يفرض علي إنصافه بعيدا عن الخوف من حكم الآخر أو اتهامه لي بالانحياز.

فلهذا الرجل من المواقف والأخلاق ما يجب أن يطلع عليه أبناء هذا الجيل، الذين نجد عند الكثيرين منهم الشغف بالتعرف على حياة الآباء والأجداد، وتحجيم المسافة بينهم وبين السابقين من الشعراء والمفكرين وغيرهم ممن بنوا هذه الأرض ووضعوا أساسها للأجيال اللاحقة.

وأنا هنا لن أضيف الكثير إلى بحث الدكتورة حصة، كوني أكتب مقدمة(*) وحسب، وليس بحثا أو دراسة حتى أوفي الموضوع حقه، لكنني سأحاول تسليط الضوء على بعض الأمور المهمة في هذا الشأن.

---

* كان من المفروض أن تكون هذه المقالة مقدمة ولكنها رحلت ألى نهاية الكتاب نظراً لاسهابي في التفاصيل - كما سبق الاشارة - في مقدمة الكتاب.

الذات الشاعرة وحضور الآخر فيها

لم يسع الشاعر زيد الحرب إلى أن يكون شاعرا، بل وجد نفسه - دون قصد منه - يتسرب في عروقه الشعر كما تتسرب المياه العذبة في جذور النباتات فتبعث فيها الحياة والجمال والظل.. ولهذا جاء شعره عفويا، قريبا من القلب.

ولعل نفسه الشاعرة قد سعت إلى المبادرة في تكوين هيكل هذا المجتمع من خلال الحث على البناء، بل المشاركة الفعلية في العمل من أجل تقدم الكويت ورقيها، وخوض المعارك في سبيل حريتها وكرامتها.

وبما أن النفس التي تسعى إلى المبادرة لا تكتفي بحدود واجباتها بل تتعدى ذلك إلى ما هو أبعد، فقد وجد الشاعر نفسه مهموما بالأرض العربية يتنفس قضاياها، ويساهم في تحمل مسؤولياتها في خضم الأحداث الجسام التي تعرضت وتتعرض لها هذه البقعة منذ أزمنة بعيدة.

لقد دافع عن حقوق هذه الأمة بالكلمة، وكان تواقا إلى المشاركة بالدم والروح - كما فعل مع وطنه - ولكن الفرصة لم تتهيأ له لتحقيق هذه الأمنية.

ونفس كهذه تسكنها هموم الأمة، وتحركها مشاعر إنسانية دفاقة، لا تكتفي بما هو كويتي أو عربي بل تمتد بجذورها إلى إنسانيتها الواسعة حتى تشمل الكون كله.

إذن لقد كان الشاعر زيد الحرب شاعرا كونيا مهموما بوطنه وأمته وإنسانيته، وحتى نتعرف على دوافع اهتمامه بالكون من حوله، لا بد أن نتعرف إلى هذا الرجل من الداخل ونسلط الضوء على زوايا ومناطق هذه الذات التي احتضنت العالم بأسره.

الانبثاق من الداخل إلى الخارج

لقد سعى الشاعر إلى تدريب ذاته ورعايتها وتهذيبها بالمحبة المطلقة، والانطلاق بها إلى الآخر، أي أن التركيز لديه على الآخر ينبثق من احترام الذات ورقيها وابتعادها عن الأنانية والسوداوية والانسحاب، بل على العكس من ذلك كانت تمتلك من الصفات ما يؤهلها لتأدية الدور الذي كلفها به صاحبها، فهي تمتلك الشجاعة والقوة والأمل والصبر على الدنيا وأصحابها، كما تمتلك النظرة الثاقبة إلى أعماق الأشياء والبدء منها، أي إنه يبدأ الانطلاق من الداخل إلى الخارج، وعلى الرغم مما يبدو في شعره من اهتمام بارز بالعالم الخارجي - وهذا صحيح - فإن الوصول إلى هذا العالم كان يتم لديه من نقطة الذات، وهذا ما يجعله صادقا .. حقيقيا وصائبا.

ركائز شخصية زيد الحرب

أول ما تأخذنا سفينة الإبحار إلى أعماق هذا الرجل، تبهرنا لآلئ المعرفة الصادرة عن نفس صافية تعشق الوطن والأمة بقدر عشقها لذاتها وأسرتها، وتشدنا شهادة صادقة على عصور خلت كان للأمة فيها شأن آخر غير ماهي عليه في وقتنا الحاضر، كما يسحرنا البيان المنبثق عن فكر حر لا يخشى إلا الله ولا يبتغي غير الحقيقة هدفا.

ترتكز شخصية الشاعر زيد الحرب - بالإضافة إلى ما ذكرناه آنفا - على عدة ركائز، منها عزة النفس، قوة الشخصية، الشجاعة الأدبية، الصراحة، وصفات كثيرة من بينها - بل لعل أهمها - الذكاء الفطري الذي يظهر في قصائده بصورة عامة، ويتألق - بصورة خاصة - في شفافيته ومقدرته على الحدس والتنبؤ بالمستقبل على ضوء معطيات الماضي واستقراء التاريخ والاستفادة منه من جهة، ومن الأحداث المعاصرة ومؤشرات

الحاضر من جهة أخرى. وذلك لإقامة صرح المستقبل على هاتين الركيزتين والتنبؤ بالآتي على ضوءيهما، كما أنه قد اتخذ من المكان وسيلة للاستشهاد على ما يدور من وقائع في مكان ما والتنبؤ بمثيل لها في مكان آخر، مشابه لها في البيئة والأحداث والظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها. وهذا ما جعله يصوغ لنا التاريخ في قصائد رائعة تجعل له وجها آخر، فقراءة التاريخ شعرا قد تحقق للمتلقي متعة مضاعفة، هي متعة الشعر بالإضافة إلى متعة التاريخ كما أن الشعر أكثر انتشارا وأقرب إلى قلوب العامة منه إلى العلوم الأخرى ومن بينها التاريخ.

بروز الحدس في شعره والتنبؤ بأحداث قادمة

ولإيضاح هذه النقطة، نعطي أمثلة على بعض الوقائع التي تنبأ بها، والتي وقعت بالفعل.

فمن هذه القصائد - ذات الرؤية البعيدة - قصيدة حذر فيها من أطماع العراق في الكويت، وقد قال هذه القصيدة، في العهد الملكي إبان حكومة «نوري السعيد» الذي لقبه في قصيدته - وفي كثير من قصائده - بالشقي، وقد تطرق في هذه القصيدة إلى «حلف بغداد» الذي كان يضم العراق والأردن ودولا أخرى والذي انهار بانهيار النظام الملكي في العراق في ١٤ تموز عام ١٩٥٨.

يقول في هذه القصيدة وهي قصيدة طويلة جميلة، نكتفي منها بالأبيات التالية(١):

وحلف مع بغداد عده معدومي

ترى دماره خير لك من عماره

وعز تريده بعزهم ما يدومي

غصن الشري لا تظن تحلى اثماره

إلى أن يقول:

ولا بد ما ابتبان بيض النجوم

واللي مغطي تنكشف لك اسراره

واعــرف قــصــيــر الســو ياشــيـخ زومي

يضـــحك وهـو خــــلافك ســواة المشـــاره

الصـــبح ياتيكم صــديق مــحـــشــومي

وعـنـد الـدجى يـرسـل عـليكم أشـــــراره

إلى أن يقول:

مـيـر انهـضـوا قبل «الشـقي» لا يقـوم

وقظ بـه الـدخـــان ســـــده بحـــجــــاره

هذه الصورة الشعرية التي حذر الشاعر فيها من هجوم مباغت، تحولت إلى واقع ملموس في صبيحة الخميس ٢ أغسطس عام ١٩٩٠، حيث تم اجتياح الكويت في ذلك اليوم، أي أن ما حذر منه في العقد الخامس من القرن الماضي قد حدث بحذافيره في التسعينيات منه حين تهيأت الظروف.

وهناك أكثر من قصيدة تنبأ فيها بالمستقبل على ضوء معطيات الحاضر ومؤشراته، فقد تنبأ بحدوث ثورة في مصر تقضي على الإقطاع والرأسمالية، وتحرر الشعب من الاستعمار وأذنابه، وتعيد الحقوق لأصحابها ... وقد قال هذه القصيدة قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بعام واحد حيث امتدح رئيس وزراء إيران في ذلك الوقت، وهو السيد «مصدق» الذي قام بتأميم شركات النفط الأجنبية في إيران ١٩٥١، يقول في مطلع قصيدته(٢):

قــالوا «مــصــدق» قلت يصــدق بما قـــال

غـــــاسـق وقـب والسم مـنـه يـســــيـــــر

هـذا الرجل إن كــان في الشــرق رجـــال

وهـذا الـوزيـر لـي قـــــيـل حطـوا وزيـر

ثم يتطرق إلى جلاء القوات الأجنبية عن إيران، فيقول:

شــوف أزرق الـعــيـنين من ضـربتـه شـــال

من ظـن «عـــبـــادان» عنـه ينيــــر

شـــــالوه «بكرين» المراكب ومـــحـــال

مــا صـرفـه الضـرغـام يركب بصـيـر

وينتقل من الأحداث الساخنة في إيران، إلى التنبؤ بما سيحدث في «مصر» التي تقع تحت ظروف استعمارية مشابهة، فيقول:

ان كـان في مـصـر صناديد ورجـال
مـا صـار في طهـران فـيـهـا يصيـر
وإن عـاش له «النحاس»[٣] وزانت الأحوال
مـا عـاد له بالشـرق مـفـرش حـصـيـر
وأذنـابـه الخـوّان كنـازة المال
لا بد مـا يرغـون عـقـب الهـدير
طاح الجـمل والشـيل من غـاريه سـال
كـثـروا سكاكين اللحم للعـيـر
وعـدوكم لي طاح دوسـوه في الحـال
ترى أن نهض ينهق مناهق حـمـيـر
تفـانموا الفـرصـات لو شـرب فتجـال
تمركم مـثل السـحـايب تطيـر

وتتكرر هذه الرؤية الثاقبة في قصائد أخرى، كالقصيدة التي تناول فيها أحداث الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٥٨ والتي تنبأ من خلالها بثورة الأحرار في العراق على النظام الملكي، حيث تحقق هذا التنبؤ وتحول إلى واقع ملموس إثر حدوث ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨.

يقول في هذه القصيدة، مشيرا إلى «الشقي»، و «الوصي» وهما «نوري السعيد» رئيس وزراء العراق في العهد الملكي، والسيد «عبدالإله» خال الملك فيصل - ملك العراق - والوصي على عرشه، كما يشير في هذه القصيدة إلى «شمعون» وهو السيد كميل شمعون رئيس لبنان الأسبق.

يقول في هذه القصيدة[٤]:

بهذا «الشقي» و يا «الوصي» وشتقولون
تزينوا «لندن» خـبـيـثين الأشـوار

ما هي حماسة أو محبة لـ «شمعون»

ولا هي مودة أو حمية على الجار

لا شك فيهم ذل مما يخافون

خوف تثور شعويهم سر وجهار

وهذا صحيح العلم لازم يثورون

ما يلبسون الذل فروخ الأحرار

إما بشهر «تموز» ولاّ بكانون

يجيك من «بغداد» تفصيل الأخبار

اصبر قليل شوي وفيهم تشوفون

وما صار في لبنان بيعم الأقطار

ويا ناصر موسى على جيش فرعون

ويا ناصر جيش الصحابة والانصار

إلا التقينا بين طاعن ومطعون

«عبدالناصر» تنصره وين ما صار

وان كان «ايزنهور»(٥) بالحرب مفتون

حنا نريد الحرب ونفرح إلي صار

ومن لا يريد الحرب ياناس مجنون

ولاّ ذليل لابس العيب والعار

أما لنا والا علينا يحكمون

والا طردناهم من كل الاديار

إلى أن يقول:

و«إيدن» (٦) يبينا ملك بيديه مرهون

ويبيعنا بيع المواشي بالاسعار

والا الشقي قلبه من الغش مشحون

خان العراق وباع دينه بدينار

يلعب على الحبلين في غي وفنون

كف به «الدنبك»(٧) وكف به الطار

زهد الشاعر في المال

تطرقنا في الفقرة الماضية إلى سمة من سمات الشاعر وهي شفافيته ومقدرته على استقراء الأحداث والتنبؤ - على ضوئها - بالمستقبل، وهذا دليل على ذكائه الفطري وثقافته الواسعة.

أما السمة الثانية التي سنتناولها بشيء من الإسهاب فهي قناعة الشاعر وزهده في المادة واحتقاره للمال، وقبل أن نتطرق إلى هذه السمة لا بد لنا من أن نشير إلى ما ورد في بحث الدكتورة حصة الرفاعي فيما يتعلق بهذه النقطة، فقد فطنت الباحثة إلى زهد الشاعر وقناعته واستشهدت بقصيدة يقول فيها:

ما همني المال يا ناس لو زاد
الخير عند الله والارزاق وايد

ثم أوردت أبياتا أخرى في قصيدة ثانية، وهي قصيدة «أجاهد الدنيا»[8]، تقول أنها تدل على تأرجح فكر الشاعر وتغيير رأيه في مرحلة لاحقة، عما كان عليه في السابق من قناعة وزهد.

وقبل أن نرد على هذا الادعاء، لا بد أن نضع بين يدي القارئ النص كاملا - كما ورد في البحث ومن ثم نقوم بالرد عليه:

تقول الأخت حصة في بحثها القيم: «وتبقى بعض القصائد التي دلت بوضوح على تأرجح فكر الشاعر تبعا للظروف التي يمر بها، منها قصيدته التي يؤكد فيها قناعته وعدم حبه للمال، والتي تناقض أبياتا أخرى يقر فيها بأهمية المال وسيلة إلى نيل العز والسؤدد. وربما كان لظهور النفط وتغير أسلوب العيش في الكويت أثره في نفس الشاعر، ما أدى إلى تغير ملموس في بعض آرائه. فبينما يقول في إحدى

قصائده.

مـــــــا هـمـنـي المال يا نـاس لـو زاد
الخـــيـــــر عند اللـه والارزاق وايـد

يقول في الثانية:

إن كــان عندك مــال يصـيـــر لك كــار
لَونًك ســواد الليل قــالوا قـــمـــرها
وإن كـــــان مـــا تملك من المال دينار
أخــيـــــر بطن الأرض لك من ظهـــرها
ترى حـــيـــاة الذل ترث لك العـــار
ومـــوتك على عـــز ارفع قـــدرها»

ثم تحاول الأخت الباحثة أن تجد تبريرا لهذا «التغير» فتقول:

«يبدو أن التغير الذي طرأ على رأي الشاعر مرهون بالموضوع الذي يتحدث عنه، والظرف النفسي الذي يمر به. ففي الأبيات الأولى يتحدث عن قضية فلسطين التي يهون في سبيلها المال. أما الثانية فيتناول فيها ظاهرة عامة في المجتمع، وهي أن قيمة الإنسان أصبحت تقاس بمقدار ثرائه»(٩).

وللرد على هذا الكلام نقول:

أولا:

إن سمة الزهد لدى الشاعر زيد الحرب، سمة لصيقة بشخصيته متجذرة فيها، لا تتغير مع الوقت ولا تتأثر بظرف طارئ.

ولعل الأخت الباحثة لم تفحص الأبيات التي أوردتها، كدليل على كلامها، فحصا يتناسب مع بحثها القيم في مجمله. فالأبيات التي ذكرتها كدليل على تأرجح فكر الشاعر، إنما هي في الحقيقة دليلنا على تمسك الشاعر بمواقفه، ومنها موقفه من المال، وإن ما تراه الدكتورة

تناقضا بين القصيدتين إنما نراه تطابقا وتأكيدا يشد بعضه بعضا.

فهو في القصيدة الأولى يعبر عن رأيه الشخصي في المال فيقول(١٠):

مـــــــا همـني المال ياناس لو زاد
الخـــيـــــر عند الله والارزاق وايد

بينما هو في الثانية يستعرض نظرة الآخرين إلى المادة، ومدى حبهم لها، إلى درجة التملق والنفاق؛ فهم يتملقون صاحب الثروة فيصفونه بما ليس فيه من صفات، فيقول(١١):

إن كان عندك مال بيصير لك كار
لَونِكْ سواد الليل قالوا قمرها

إذن فالشاعر هنا لا يكتفي باحتقار المال بل يتعمق في زهده فيه حتى لا يكتفي باستصغاره - مقارنة بالقيم والأخلاق - بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيحتقر المنافقين والمتملقين لصاحب الثراء.

وقد أدركت الأخت الباحثة هذه النقطة، حيث قالت: إنه في القصيدة الثانية - قصيدة أجاهد الدنيا - قد تناول ظاهرة عامة في المجتمع، وهي أن قيمة الإنسان أصبحت تقاس بمقدار ثرائه. ولا أدري، بعد أن أدركت هذه الحقيقة - كيف تحكم على الشاعر بتأرجح الفكر، وتغيير الرأي والتناقض بين قصيدة وأخرى.

ثانيا:

بعد أن حكمت الأخت الباحثة على الشاعر بتأرجح فكره وتغيير رأيه تجاه المادة، تقوم بتبرير ذلك فتقول:

«ربما كان لظهور النفط وتغير أسلوب العيش في الكويت وأثره في نفس الشاعر ما أدى إلى تغير ملموس

في بعض آرائه»[١٢].

ونرد على هذه النقطة فنقول:

«كنا نتمنى على الأخت الباحثة أن تقرأ التاريخ المدون في ذيل كل من القصيدتين، إذن لوجدت:

١ - أن القصيدة الثانية، وهي قصيدة «أجاهد الدنيا» التي أدرجتها كمثال على تحول الشاعر من الزهد في المال إلى الإشادة به - قد كتبت في تاريخ سابق على تاريخ كتابة القصيدة الأولى - والتي استشهدت فيها على زهده في المال، فتاريخ الأولى يعود إلى عام ١٩٤٩، بينما هو في الثانية عام ١٩٢٩، ولهذا نقول إن من المنطق أن يتغير المرء في الحاضر عما كان عليه في الماضي وليس العكس.

٢ - إن النفط الذي طرحته الباحثة كسبب في تغير رأي الشاعر. لم يكن قد ظهر بعد في قصيدة يعود تاريخها إلى عام ١٩٢٩. إذن فالنفط بريء من التهمة، وكذلك الشاعر.

ثالثا:

بعد أن استشهدنا بالأبيات ذاتها التي طرحتها الباحثة دليلا على تأرجح فكر الشاعر، بينما استخدمناها دليلا على ثبات رأيه ورسوخ فكره، وكي لا نخرج من دائرة القصيدة موضوع الخلاف، نضع بين يدي القارئ العزيز هذه الأبيات، وهي من القصيدة ذاتها التي اتهم فيها بحب المال يقول:

لا تظن يبقى على الأرض ديار

الموت يفني برورها مع بحرها

هنا يتطرق الشاعر إلى حتمية الفناء، فكل ما هو فوق الأرض مصيره إلى الموت، لكنه يستدرك فيستثني أشياء غير قابلة للزوال ... ما هذه الأشياء التي تخلد في سجل التاريخ، وتبقى بعد فناء المادة واندثار البشر؟... إنه

يحددها بصفات أربع فيقول:

إلا أربع الشـــايات تبـــقى على الدار
ومـــسـجل وسط السـجلة خـبــرها
عـــــالم عليم نافع كل الأقطار
مـــصـــفي دينه مـــجنب كـــدرها
والا كـــريم مكرم الضـــيف والجـــار
نفـســـه على درب المراجل قـــدرها
والا شـجاع الضيق لي صار ما صار
كم سـرية بحـد سـيـفـه قـهـرها
أو شـاعـــر بيطار في نظم الأشـــعـار
قـــصـــايده بالطرس كل سطرها

إذن لقد أزاح الشاعر الغبار عن الأشياء التي يراها جوهرية لا تفنى بفناء الجسد ولا تزول بزوال المادة، وحددها بأربع صفات ليس من بينها المال أو صاحب الثروة الذي يندثر باندثار ثروته، وينتهي كما تنتهي البهائم، حيث يسترسل في قصيدته فيقول:

وباقي الملا يسـرح مع الهـوش لي بار
اشلع لسـانه وسـرحـه مع بقـــرها
لي عـاد مـا يعـرف مع الجـار والمار
جـعل العـمى يفـضح بعـينه نظرها
ويعل من يبكيـــه في قـــاعـــة النار
له مسكن بأقصى مساكن قعـرها

إذن ليس هناك أدل على ثبات فكر الشاعر تجاه المادة، من هذه الأبيات التي استخلصناها من القصيدة ذاتها التي ارتأتها الباحثة دليلا على تأرجح فكره، وبررت هذا الأمر - فيما بررته - بتغير الظروف أو بالحالة النفسية التي يمر بها الشاعر! إذ كيف لهذه أو لتلك أن تتغير من بيت إلى بيت في قصيدة واحدة!

مختارات من بعض القصائد التي تدل على زهد الشاعر وقناعته وعزة نفسه:

هناك الكثير من القصائد التي تؤيد ما ذهبنا إليه من زهد الشاعر في المال، والتي سنحاول الإشارة إليها باختصار نظرا لكثرتها من جهة، ولضيق المساحة من جهة أخرى.

يقول في إحدى قصائده، وهي قصيدة قالها في بدايات القضية الفلسطينية، منتقدا فيها الحكام العرب على تقاعسهم تجاه فلسطين، مفسرا هذا التقاعس والتخاذل بجشعهم مشيرا إلى تكالبهم على المال على حساب القضايا العربية الكبرى، فيقول(١٣):

تزعمون أن «جورج» هو سيد البشر
ولدنانير السياسة تركضون

ويسترسل في قصيدته مبينا احتقاره للمال قائلا(١٤):

مقعدي بالعز لو كنت بسقر
جنة الدنيا إهي عندي تكون
وجنة الدنيا في ذل وقهر
ما نبيها لو تخضع بالغصون

فالشاعر هنا يرفض الذل، ويزهد في متاع الدنيا حين يكون مصحوبا بالقهر والإذلال، بينما يرحب بالحرمان حين يكون مصاحبا لعزة النفس والمنزلة الرفيعة.

ويواصل انتقاده للقادة العرب على خضوعهم واستسلامهم للاستعمار في سبيل المادة، فيقول(١٥):

لا شك بعض الناس بالمال مفتون
حرصه على ماله يزيده استعمار

ورجل معه مال وبالذل مسجون
هذاك ثور هور أو - تكرم - حمار

هنا يشبه من يمتلك ثروة طائلة، ويفتقر إلى عزة النفس بالحيوان وفي قصيدة أخرى يقول:

يا مغالي بعمرك وللمال جرار
مالك وعمرك لا تهقى يبيدومي

إذن المال دائما - في عقيدة زيد الحرب - مصيره إلى الزوال.

أما في قصيدته التي امتدح فيها الزعيم العربي «جمال عبدالناصر» بمناسبة تأميم قناة السويس، وانتقد فيها بعض الحكام العرب الذين يكتنزون المال على حساب شعوبهم التي تكاد تموت جوعا وحرمانا من أبسط حقوق الإنسان، فيقول(١٦):

تكنزون المال من حرام وحلال
والشعب هلكان ما يحصل قليل
شعبكم بالشمس وأنتم في ظلال
في قصور عالية وغرس ظليل

ويربط بين الحب المفرط للمال، وبين مذلة العرب وانتكاساتهم وهزائمهم، فيقول في أبيات أخرى من القصيدة نفسها(١٧):

إن ما نهضتوا يا عرب نهضة رجال
بلعون ما تسوون دخان السبيل
وانا بريءٌ منكم في كل حال
مالي مع الذلان خل ولا خليل
مقعدي بالشمس أحسن من يقال
ألتجي بالضد وأقول له دخيل

إذن فهو يتبرأ من العرب الذين يرضون بالذل في سبيل المال، فيستثني نفسه من هؤلاء، ويفضل وهج الشمس وشظف العيش على القصور والظلال الوارفة التي تجلب له المذلة والهوان.

وحين يضع مثالا للزعيم الحقيقي، ونموذجا لما ينبغي أن يكون عليه الحاكم فإنه يختار الزعيم الراحل جمال عبدالناصر، لماذا ...؟

يقول[18]:

لي فخروا الناس في كنز ومال
يفتخر بالطوب والسيف الصقيل
ولي لبسوا الناس ملبوس الجمال
يلبس النوماس والخلق الجميل

إذن فالنموذج الحقيقي للحاكم في رأي الشاعر زيد الحرب، ليس هو من يفتخر بثروته أو قصوره، بل هو ذلك الشخص أو القائد الذي يسعى إلى الدفاع عن أمته، ويستعد لملاقاة العدو ذودا عن حياضها وكرامتها، وهو أيضا الشخص الذي يتحلى بالقيم والأخلاق الراقية.

ويقول في قصيدة رائعة مطلعها[19]:

يا طارشي سلم على الليث رومي
ود التحية صوب ستر العذارى

هذين البيتين:

ترى العمر والمال ما هو يدومي
يبقى لك التاريخ يحيي اذكاره
ورجل معه مال ولا هو عزومي
بضايعه تجلب لسوق الخساره



وينهي قصيدته ببيتين يوصي فيهما الفتاة أن تتمسك بقيمها ومبادئها، حتى وإن ضحت بمظهرها الخارجي، وهذا ما يتماشى مع عقيدته التي تصب اهتمامها على جوهر الأشياء ودواخلها، بينما يجد في المظهر الخارجي شيئا ثانويا لا يؤثر في قيمة الأشخاص أو الأشياء حوله.

يقول في ذلك:

يابنت يا اللي شبه ظبي يزومي
لا تلبسين الذل بثياب خاره
ثوب من المرظوف ظافي كمومي
أخير من ثوب الزري وفيه عاره

أما ثوب «خاره» فهو نوع من الثياب غالية الثمن بينما المرظوف رخيص الثمن يلبسه العامة والفقراء، فهو أجمل - في نظر الشاعر - من «الخارة» ومن «الزري» وهو أيضا من الثياب الفاخرة المطرزة بخيوط ذهبية ثمينة، حين يكون ثمن هذه الثياب كرامة المرأة ومكانتها التي تسمو بجوهرها لا بمظهرها.

وفي قصيدة يتناول فيها الأخلاق والمثل العليا، يقول من بين النصائح التي يقدمها في هذا الشأن:

أوصيك عز النفس ان كنت رجال
النفس هي مفتاح خبثك وطيبه
ويالك إطالع حاجة عند الانذال
يحيل دونها طويج لوهي قريبة

إذن الزهد فيما لدى الآخرين، هو الذي يجلب للشخص الرفعة ويحفظ له كرامته التي تفوق في قيمتها المعنوية الأموال والكنوز.

أما في القصيدة التي تكلم فيها عن «القدس»، والتي

انتقد من خلالها الشخص الذي يبيع مقدساته في سبيل المال، فيقول فيها:

اخـدم خـلاصك عندهم واجـمع «ابيـاز»
والثـور شـيـهـمـه إذا بات مـقـهـو

و «الابياز» هي في اللهجة الشعبية تعني «النقود» التي يتكالب في جمعها بعض المسؤولين؛ مضحين بمقدساتهم بل بإنسانيتهم، فقد جعلهم الشاعر زيد الحرب في مرتبة «الحيوان» الذي لا كرامة له.

ولعل من أجمل ما قال في هذا السياق، قصيدة يتحدث فيها عن أسرته الصغيرة، ويصف فيها سعادته بين زوجته وطفلتيه، فيقول:

ألتـفت عن يميني وعن شـمـالي
وردتين من المهـرة العـفـيـفـة
شـوف «دسـمـان» وغـيـره مـاطرالي
عن قـعـدة «الكشك» تغنينا الصـريفـة
لي حـضـرنا حكمنا مـا نبـالي
حكم «ديلي» في دار الخليـفـة (٢٠)

إذن يجد الشاعر سعادته في بساطة الحياة وصدقها، ويشبه منزله المتواضع بالعشة الصغيرة (الصريفة) التي تفوق في جمالها ورونقها - في رأيه - القصور السامقة، والتي يستغني بها عن «قعدة الكشك»، أي الجلوس في شرفة ضخمة تطل على الساحات الواسعة أو الحدائق الوارفة.

ويعتبر بيته الصغير هذا مملكة يشاركه في إدارتها زوجته وابنتاه بإرادة مطلقة ليس للآخرين سبيل إلى التدخل في شؤونها.

ذكرنا لاحقا بعض الأمثلة التي استخلصناها من ديوان الشاعر زيد الحرب، وهي قليل من كثير، وكلها تؤكد ثبات موقفه من المال وتصور مدى زهده فيه،

خاصة حين يكون متعارضا مع قيمه ومبادئه وكرامته.

ويكفي أن نقول إن سيرة حياة هذا الرجل دليل قاطع على صحة ما ذهبنا إليه، وما أكده أصدقاؤه ومعارفه وجيرانه، وما استخلصناه من قصائده، بالإضافة إلى ما درجنا عليه من سنوات طوال عشناها في كنفه، فلو لم يكن الشاعر زيد الحرب بهذه الصفات لما سار عكس التيار، في الاتجاه الذي يرضي ضميره، مناديا بالعدل والحرية والمساواة، وتصحيح الأوضاع.

وقد تحمل في سبيل ذلك الكثير من المضايقات - ليست من الجهاز الرسمي - بل من المنتفعين والمنافقين، وذلك بسبب ثبات مبدئه وعدم قبوله للمساومة، أو لما يسميه البعض مجاملة، بينما يسميه زيد الحرب نفاقا. ولقد امتدح أشخاصا لا يرتجي من ورائهم مصلحة خاصة، بل لقناعته بهم كمسؤولين يعملون من أجل مصلحة الأمة وكرامتها.

أما على الصعيد الرسمي للدولة، فنحمد الله على أننا نعيش في دولة حرة تحترم الكلمة، وتسمح للرأي الآخر أن يتصاعد في سمائها المشمسة.

ويبقى أن نقول أن ليس كل ما ذكرناه من أمثلة وما استشهدنا به من قصائد من قبيل الرد على الدكتورة حصة، وإلا لاكتفينا بجزء يسير منه، ولكنه شهادة على رجل عرفناه حق المعرفة، كما وجدنا في قصائده من الزهد والقناعة، ما دفعنا إلى الاسترسال في هذا الجانب - الذي يحتاج إلى دراسة خاصة - فتداعت الأمثلة - وحضرت الشواهد.

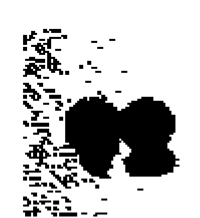
أما ما ورد في بحث الدكتورة في هذا الشأن، فأنا لا أعتبره نقصا أو قصورا، بل كبوة فارس لا تؤثر في مجرى البحث الذي أراه قيما... جميلا... عميقا في مجمله، والذي أشكر للأخت الباحثة جهدها في سبيل إنجازه، كما أتوقع أن يضيف إلى مكتبة الدراسات المتعلقة بالشعر الكويتي وبالتراث رصيدا جديدا.

كما أشكر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب تشجيعه للبحوث والدراسات المتعلقة برجالات الكويت وأعلامها.

واسمحوا لي أن أنهي مقالتي بهذه الأبيات، وهي من قصيدة كتبها الشاعر المرحوم «عبداللطيف ديين» يرثي فيها صديقه الشاعر زيد الحرب، والتي نشرت في مجلة البيان في عددها الخامس والسبعين في يونيه عام ١٩٧٢:

تذكرني فيه خصال حميدة
وعزة نفس ترفع الرأس عاليا
فما دنّس الشعر الرفيع محابيا
لئيما ولا أضحى لنذل مداجيا
مضى سالما مما تورط غيره
به إذ كان للناس هاجيا
فما عاب إنسانا ولم يلق واحدا
من الناس بالمكروه أو كان زاريا

رحم الله الشاعر زيد الحرب والشاعر عبداللطيف ديين وكل رجالات الكويت الذين سبقونا إلى دار البقاء.





1. ديوان زيد الحرب، ص١٧٠.
2. ديوان زيد الحرب، ص١٢٤.
3. النحاس: هو مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر آنذاك.
4. ديوان زيد الحرب، ص١٢٨.
5. آيزنهاور: دوايت آيزنهاور: رئيس الولايات المتحدة في ذلك الوقت.
6. إيدن: أنتوني إيدن: رئيس وزراء بريطانيا آنذاك.
7. الدنبك: آلة موسيقية.
8. ديوان الشاعر زيد الحرب.
9. «منارة زيد الحرب والعزف على أوتار الأمة»، للدكتورة حصة الرفاعي، ص٢٣.
10. ديوان الشاعر زيد الحرب، ص١١٨.
11. ديوان الشاعر زيد الحرب، ص١٩٩.
12. «منارة زيد الحرب والعزف على أوتار الأمة»، ص٢٣.
13. ديوان زيد الحرب، ص١١٦.
14. المرجع نفسه والصفحة نفسها.
15. ديوان زيد الحرب، ص١٢٩.
16. ديوان زيد الحرب، ص١٤٢.
17. ديوان زيد الحرب، ص١٣٢.
18. ديوان الشاعر زيد الحرب، ص١٣٠.
19. ديوان الشاعر زيد الحرب، ص١٧٣.
20. (ديلي): هو الحاكم العسكري البريطاني في البحرين في ذلك الوقت.

* مجلة «البيان» عدد ٧٥ يونيو ١٩٧٢.

- ديوان زيد الحرب ص٢٧٧.

المحتويـــات



تم التنضيد والتصحيح والإخراج والتنفيذ

في وحدة الإنتاج

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - المدرسة القبلية

ردمك ١-١٦٣-٠-٩٩٩٠٦
ISBN 99906 - 0 - 163 -1

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت